اقرأ

٢٨ م

حسن محسّب

روح مصر في قصص السباعي

دار المعارف

هـذا الكتاب

دراسة أدبية عن روح مصر من خلال قصص الشهيد يوسف السباعي ، توضح فكره الوطني ، ودعوته إلى الإصلاح الاجتماعي وإلى الثورة . .

وتتناول الدراسة بطولات الإنسان المصري كما أبدعها السباعي في مختلف مراحله القصصية والروائية . . فتعكس أصالة هذا الوطن الخالد . . وكفاح شعبه من أجل تحقيق الحرية والعدالة .

٤٥٠٧٦٩ / ١ /

١٠ جـ

اقرأ ٢٨ م

رئيس التحرير أنيس منصور

حسن محسّب

روح مصر في قصص السباعي

دار المعارف



(١٠ يونية ١٩١٧ - ١٨ فبراير ١٩٧٨)

الإهداء

إلى مصر . . الأم . .
وإلى ابنها البطل الشهيد :
يوسف السباعى . .
أهدى هذا الكتاب :
– كلمة وفاء لعطائك الأدبى والفكرى . .
– وصرخة احتجاج وغضب . .
على الذين اغتالوك . يوم ١٨ فبراير ١٩٧٨ فى قبرص . .
حين كنت – أيها الرجل الشجاع – تدافع عن حقهم فى الحياة ! . .

حسن محسّب

مقدمة

الاتجاه نحو الناس . .

يقول – كارليل – فى كتابه : الأبطال : « البطولة فى مذهبى . . هى العروة المقدسة ، التى تربط ما بين الرجل العظيم وبين سائر الناس . . » . .

وفى ظنى أن يوسف السباعى ، قد تعلم هذا الدرس منذ صباه الباكر ، لأن مترجم هذا الكتاب كان هو والده الأديب الكبير : محمد السباعى ! . .

والقراءة المتمهلة لقصص السباعى ، تؤكد لنا ، أنه قد ربط بين كلام – كارليل – عن البطولة ، وبين الواقع المقيد بالمشاكل . . من حوله ، سواء فى « جنينة ناميش » بالسيدة زينب ، أو فى حى شبرا . . وهما – هذان الحيان الشعبيان – صورة مصغرة ، وضخمة فى نفس الوقت ، للمجتمع المصرى ، بريفه وحضره . . بفقراه . . ومدنه ! . .

ولعل يوسف السباعى ، من هذه المقارنة ، بين الكلام النظرى الشجاع عن البطولة ، وبين الواقع الأسير للتخلف والاحتلال ، بدأ

يدرِّب نفسه ، ويعوِّد موهبته . على الاتجاه نحو الناس . . كل الناس . . بكل ألوانهم وأخلاقياتهم المتباينة . . وبدأ يدرس ويفهم ويتعلم ، من قصص وكتابات والده ، الناقد الاجتماعى اللاذع الذى كان يغمس قلمه فى قلب المشاكل . لينشر فى «الصور» توجيهاته الإصلاحية . . وأكاد أتصور يوسف – الصبى ابن العاشرة أو الثانية عشرة – وهو يلهو حول والده ، ويعجب لانشغاله بالكتابة ، فى حين أنه هو – مثلاً – فى حاجة إلى نقود ليشترى لعبه ، أوليذهب إلى السينما مع أقرانه . . ويومها – أكاد أتصور – كان الأب ، يكبت ألمه . . وضيق ذات اليد ، ويدعو ابنه بحنو ورفق لكى يقرأ – أو يستمع إليه ، ثم يطالع عليه ، تلك «الصورة» التى نشرها – الأب – بعنوان «الدنيا» وفيها يقول : «هذا وزير . . ما أرفعه ، وذاك خفير . . ما أحطه ، وما علموا أن الخفير قد يحفظ من أعراض الناس ، وكرامتهم ما يضيعه الوزير . . ألا أيها الشامخ بأنفه ، إذا شئت أن يحييك الكناس بقلنسوته الرثة فحيه أنت أولاً . . لا تجبر ذاك الفقير على إحناء الرأس لك ، إنه رأس إنسان مثلك . بل أشرف منك . ليس لغير الله ينحنى . . أيها المتكبر الوارم من الكبر . . أتريد أن تثنى مليون رقبة إجلالاً لك وأنت لا شىء . . أتدرى ما أنت به أحق ؟ . . أنت أحق بمليون قدم تدوس عنقك المعوج ! . . » . . إلخ . . إلخ . .

ويومها يتعلم السباعى ، أن والده ، يملك شيئاً مثل المدفع هو . . القلم . . ويملك شجاعة تفوق شجاعة عنترة . فها هو ذا لا يخاف وزيراً

ولا ملكاً . . وربما نسي بكاءه من أجل القرش أو اللعبة ، وربما صفق مهللا لوالده ، و . . لكن المؤكد أن هذه الكلمات حفرت نهراً عميقاً فى وجدانه ، وجعلته يسعى إلى دور البطل . . وربما وقع فى حيرة بين بطولة نابليون ، وعرابى ، وبطولة قلم والده . وبطولات الشعب وسعد زغلول فى ثورة ١٩١٩ ، وكان السباعى طفلاً يرى ويختزن هذه البطولات فى وجدانه . .

ولم يتخلص السباعي من حيرته هذه ، فجمع لسنوات طويلة ، بين البطولتين ، وكان ضابطاً فى سلاح الفرسان ، ومعلماً بالكلية الحربية ، وفى نفس الوقت . . لا يكف عن شق طريقه بسلاح « القلم » ليحقق فى صمت . . ودأب . . وإصرار . . أخلد بطولاته . . كأديب ! . .

لكن . . أى كلام عن بطولة السباعى ، لن يكون له أى معنى إلا إذا حاولنا إبراز الصور الرائعة ، التى أبدعها خياله وفكره للإنسان المصرى . . العادى جداً . . فى كفاحه اليومى من أجل لقمة العيش . . إن هذا الإنسان بالذات هو الذى شغل عنه والده ، وهو الذى تحدث عنه كارليل ، وهو النماذج الكثيرة المطحونة التى أسالت عبراته ، وهو يرقبها فى دروب حى السيدة . . وحوارى شبرا . . وأشفق عليها ، وتمنى لو أوقف عذابها بيديه . . بأسنانه . . بقلمه . . و . .

لكن – مرة أخرى – هل كان يوسف ، واعياً بدوره منذ صباه ! . .

من الصعب الإجابة على مثل هذا السؤال ، لكن متابعة تطوره الأدبى ،

من القصة القصيرة إلى الرواية ، إلى العمل السياسي والإدارى . . وتحليل كتاباته، يجعلنا نجزم بأنه كان يتصور لنفسه دوراً ما . . وها هو ذا يكشف – دون قصد – عن تصوره لدوره فى الحياة ، عند تصويره لشخصية « إبراهيم » أحد أبطال روايته « طريق العودة » . . إنه يقول فى ص ٩ ، ص ١٢ : «كانت هندسة الإنشاء والتعمير فى دمه وفى كيانه . . شيء ما لابد أن يحدثه فى هذه الحياة الكئيبة . . شيء يكسبها بعض الجمال والرونق . . ويمنحها بعض النور ! . . »

أليس هذا هو ما فعله يوسف بالضبط ! ! . .

لكن . . مرة ثالثة . . ما هى مراحل تطوره الفكرى ، التى أخذت بيده إلى هذا الدور البطولى ، فى الالتزام بتصوير بطولات الإنسان المصري العادى ، والانتصار لهذا الإنسان ، وللوطن الأم ؟ ! . .

يمكن تقسيم هذه المراحل إلى ثلاث :

الأولى : مرحلة البحث عن دور . . والبحث عن نموذج فكرى . . وانشغاله فى نفس الوقت ، بكتابة القصص العاطفية والاجتماعية لبعض المجلات مثل مسامرات الجيب . . وهى مرحلة عكست موقفاً مبدئياً لتمرد السباعى على تلك الظروف التى عاشتها مصر فى العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن ، يوم رأى – فى شبابه – كيف يدوس الإنجليز على كرامة الشعب . . وكيف تنفسخ البيوت أمام انحراف بعض ضعاف النفوس . . أو أمام قسوة الجوع . . وبسبب الجهل أيضاً ! . . نجد ذلك فى مجموعاته

القصصية الأول : أطياف – خبايا الصدور – اثنتا عشرة امرأة . . فى موكب الهوى . . ا إلخ . . إلخ . .

الثانية : مرحلة الوعى الفكرى الذى نضج ، بسبب تنوع قراءاته وتعدد تجاربه ، وأيضاً ، لدعم نجاحه كأديب عند القراء الذين تعلقوا به فى إعجاب لم يكن معروفاً من قبل للأدب والأدباء ، وأظنه قد قرر فى هذه المرحلة ، أن يكون أديباً له دوره البارز فى بلده ومجتمعه الإنسانى ، بدليل أنه ضرب بقلمه فى بسالة ، وكتب « نائب عزرائيل » . . و « يا أمة ضحكت » و « أرض النفاق » وهذه الثلاثية وحدها تكفى لبناء مجد شامخ لأى أديب لو أنه اكتفى بها ! . .

- **الثالثة** : وهى المرحلة التى تحول فيها يوسف السباعى ، من الدعوة إلى « الإصلاح الاجتماعى » لكى يمارس بنفسه وبقلمه هذا الإصلاح . . ويمكن أن نسميها مرحلة « الفعل الثورى » والالتزام بهدف واضح ، وهو : فك الأغلال عن قلب مصر . . عن عقل مصر . . عن أبناء وبنات مصر . . وتحقيق الحرية والاستقلال والعدالة الاجتماعية . . والاستقرار العائلى للأسرة المصرية البسيطة وتحقيق أمل كل إنسان – وإنسانة ، فى الحب . . والكرامة . . والعيش بدون إذلال أو خوف ، أو استغلال ، ونحن نجد البداية فى « بين الأطلال » . . و « السقا مات » ، و « البحث عن جسد » . . لكن قمة هذه المرحلة بحق ، بل قمة عطائه الأدبى والفكرى ، كانت متمثلة فى تلك الروايات الخالدة . التى بدأت

بقصته الطويلة : رد قلبي . . ثم نادية – جفت الدموع – ليل له آخر – أقوى من الزمن . . نحن لا نزرع الشوك . . ابتسامة على شفتين . . ثم أخيراً : العمر لحظة ! . .

إن يوسف السباعى ، فى رواياته الأخيرة هذه ، كان قد حشد تجارب عمره ، وحصاد ثقافته المتنوعة ،و . . وكان قد عاد من رحلات البحث عن المعرفة عبر سنوات عمره ، وقرر أن يضرب ضربته الروائية الكبرى ، ليصنع بنفسه ذلك الشيء الذى لابد أن يحدثه فى هذه الحياة الكئيبة . . ليكسبها بعض الجمال والرونق ، ويمنحها بعض النور . . تماماً كما حلم لنفسه فى « طريق العودة » ! . . وخاصة أنه كان « قد استطاع أن يخلق لنفسه اسماً ، ويوجد لنفسه كياناً ، كمهندس معمارى » . . والمعنى هنا ، خاص ببراعته فى البناء المعمارى لفن الرواية ، ذات الهدف ، وذات المستوى الفنى الراقى . .

لكن – أخيراً – كيف تحقق ذلك للسباعى ؟ . . وكيف كانت مظاهر ، ودلالات ، هذه المراحل الثلاث ، فى قصص السباعى . . ثم . . وهو الأساس هنا – كيف استطاع أن يكون أديباً صاحب رؤية اجتماعية ، وموقف فكرى ملتزم ، قبل أن يلزم نفسه بهدف واحد هو : مصر . وإنسان مصر ، فى بطولات نذر نفسه لتخليدها . . فى آلاف الصفحات ؟ ! . . . إن ذلك هو ما سنحاول إثباته فى هذه الدراسة ، من خلال إعادة قراءة قصص السباعى ، على ضوء مواقفه الشجاعة ،

وإنِ كنت أود الإشارة هنا إلى شيء يؤلمنى : إن يوسف السباعى ، لم يكن فقط – هو الروائى العاطفى الرومانسى الذى يسيل دموع العذارى ، ويداوى جراح ضحايا العشق والحب . . – كما أراد بعض النقاد أن يقولوا – وهم كاذبون . . ويكفى إدانة لهم ، أنهم – لسوء حظهم هم – تجاهلوا دراسة قصص السباعى ، وتجاهلوا تحليل موقفه كمفكر مصرى وطنى من الطراز الأول ، وأنه – بكتاباته وحدها ، استطاع أن يضع اسمه – على قدم المساواة – مع قادة الفكر والرأى فى الأدب المصرى ، . . قديمه وحديثهُ ، وهذه هى إرادة مصر . . تمنح حكمتها الخالدة ، للصفوة الممتازة من أبنائها ، لكى ينشروا العدل والحق والفن الراقى فى ربوعها ، وبفكرهم تظل – مصر – تشع على العالم – كعادتها منذ الأزل ، وإلى الأبد . .

إن هذا ما سنعرفه ، تفصيلاً ، فى فصول هذا الكتاب . .

والله ولى التوفيق

● العمرانية الغربية – الجيزة فى ٢٧ / ٢ / ١٩٧٨ «**المؤلف**»



السباعى والمؤلف يوم ٢٠ / ٤ / ١٩٧٥ فى حوار حول مشروع اتحاد الأدباء ودور الأديب فى بناء الإنسان المصرى . .

الكاتب العاطفى ودعوة الإصلاح الاجتماعى

قبل أن يتأثر يوسف السباعى ، بكتابات المفكرين ، أصحاب دعوات الإصلاح الاجتماعى ، أمثال الأفغانى ، ومن جاءوا على هديه ، كان قد تشبع ببعض صور الحب ، التى صاغها قلم والده محمد السباعى ، وهذا شىء طبيعى مع من كانوا فى مثل سن يوسف ، يوم بدأ يكتب قصصه القصيرة فى مطلع شبابه الباكر ، حيث صدرت مجموعته الأولى – أطياف – عام ١٩٤٧ .. ولو عرفنا أنه كان قد ولد فى عام ١٩١٧ .. لعرفنا أنه كان مازال – وقت لمعان اسمه فى « مسامرات الجيب » فى مرحلة البحث عن دوره ، وعن ذاته كأديب .. فجرب أول ما جرب القصص العاطفى الساخن ، وإن حرص على أن يضمن قصصه تلك بعض الآراء الساخرة من الأوضاع السيئة فى المجتمع ، ولعله فى ذلك ، يقتفى أثر والده بتقليد آثار سخطه هو نفسه على ذاته ، فأعلن بعد ذلك فى تصويره البارع لشخصية « مراد » البطل الثانى فى « طريق العودة » رغبته فى « الانطلاق بلا قيد .. والتحرر من كل ما يثقل ميوله أويقيد رغباته .. وأنه لا يحب التقليد .. يمقته .. لأنه يريد أن يكون

هو . . ذاته . . » لكنه ، قبل أن يفلت من سيطرة كتابات أبيه على خياله وفكره ، وحتى لغته ، كان قد كتب مجموعاته الأولى ، وإن كان قد تأثر فيها بشكل خاص ، بآراء والده فى الحب . . وأقرب إلى تصورى أنه كان معجباً بتلك « الصورة » التى نشرها محمد السباعى ، تحت نفس العنوان : « الحب » وهى قطعة أدبية . . نقدية ، حافلة بآراء ليست للمتعة الذهنية فقط ، وإنما هى أيضاً نبراس أضاء الطريق أمام الأديب الناشئ — وقتها — يوسف — لكى يتحسس خطواته الأولى . . دون خطر الوقوع فى أخطاء الناشئين المعهودة !

وإذا ألقينا نظرة على أجزاء من هذه المقالة . . عن « الحب » . . فسوف نكتشف أنها كانت فى وجدانه ، عند البداية ، وظلت فى وجدانه بعد ذلك ، عندما أبدع فى ابتكار شخصياته العاطفية الرقيقة أو المعذبة ، كما سنرى . .

قال محمد السباعى عن « الحب » : إنه « وردة أوجدتها الشمس فوهبت للشمس نضرتها ، وخميلة أحياها السحاب . . » ثم يقول : لا لمال أكتب . . ولا شهرة . . دع المال يعبث بالعالم عبث الوليد بالكرة ، يجلب القصور والضياع ، والخدم والأتباع ، دع المال يشترى العقيدة والمذهب ، والمودة والحب ، والكواعب الغيد ، والأحرار والعبيد ، ما قيمة المال عند من لا يرى لهذه اللعبات قيمة . . من ينشد مع ابن الرومى :

وكل ما نقضى من الأمور
تعلة من يومنا المذكور
ومتعة من متع الغرور ! . .

ثم ينحو الشباعى – الأب – باللائمة على الدنيا ، فى سخطه على أولئك الذين يشوهون جمال الحب وصفاء الحياة . . فيقول :

– « الدنيا ! . . ما هى الدنيا ؟ ! . . زينة الليل . . سخرة النهار . . كان قلب الفتى سراجا منيرا يلف الوجود فى ضيائه ، فلما خبا القلب ذهب الضياء . . ولما جاء الهجير جف الندى وغاض الصباح . . أترى لو اشترينا كنز الترف هل نشترى قلب التصابى ؟ . . تلك لذة طواها الوقت . . نصيبك منها الذكرى ، وأحلام اليقظة والمنام ! . . » إلى أن يقول : « أيها الحب . . يا عماد الإنسان ، ومنبع القوة ، وحياة الحياة . . لقد عرفتك وأنت فتى يطفئ النهار لحظك ، وشيخا أكل الشقاء شعاعك . . أيها الحب . . أنت كعبة الأفكار ، تنهب إليك القراطيس على مطايا اليراع ، إليك حجت قصائد : المجنون قيس ، وعروة ، وجميل بثينة ، ودانتى ، وتيرارك ، لا لمال كتبوا ولا شهرة . . » . . إنما هم كتبوا لك وبتسببك ومن أجل استمرارك فى هذه الحياة . . !

لقد أطلت فى الاستعارة من هذا النص الأدبى من كتاب : الصور . . لمحمد الشباعى ، لأسباب ، أعتقد أنها قد صارت واضحة الآن . .

إن يوسف رأى والده يكتب عن الحب ، بهذه المعانى الإنسانية الراقية ، وعرف أن كل أولئك الشعراء الخالدين الذين ذكرهم والده . . كانوا يكتبون عن الحب . . وإذن فلماذا لا يفعل مثلهم ؟ ! . .

إن الحب يلعب دوراً بارزاً فى كل الروايات لجميع أدباء الدنيا . . هذا شيء طبيعي كما تعرف ! . . . لكن الحب عند يوسف السباعى ، يتخذ صوراً مصرية لها طبيعة خاصة ، إنه وثيق الصلة بتلك القصص الخالدة فى تراثنا الفرعونى ، أو العربى الإسلامى ، أو الأدب الشعبي . .

وهذا ما نلمسه بوضوح كسمة بارزة من سمات قصص السباعى فى مرحلته الأولى ، والتى ضمت مجموعاته : أطياف ١٩٤٧ – اثنتا عشرة امرأة ١٩٤٨ – وخبايا الصدور ١٩٤٩ – فى موكب الهوى ١٩٤٩ – مبكى العشاق ١٩٥٠ . : وبين أبو الريش وجنينة ناميش ١٩٥٠ والشيخ زعرب – وهذا هو الحب ١٩٥١ . .

إنه فى هذه المجموعات – التى تخللتها أعمال اجتماعية فريدة ومؤثرة – مثل نائب عزرائيل – والسقامات – تشكل ملامح الحب فى البدايات القصصية للسباعى ، وتوضح ملامح شخصية الإنسان المصرى كما بدأ هو يرسمها بقلمه . . ببطء . . وبتناغم أحياناً . . وبتوتر وحدة وعنف فى أحيان أخرى ، وكأنه يتعجل بلورة موقفه من الإنسان المصرى ، أوكأنه يتعجل فى أن يكون ذلك المهندس المعمارى الذى يتمناه فيفك اللعبة ، ويعيد تركيبها من جديد ، لتكون أكثر جمالا واتساقا وإشراقاً بنور الحب . .

● خبايا الصدور . . ومشكلة الحب :

إن هذه المجموعة ، تضم عدة صور فاقعة الألوان لشخصية الإنسان المصرى – رجلا وامرأة ، وهما يخوضان مشكلات الحب . . والعلاقات العاطفية المتكسرة . . المتحطمة على صخور الواقع المؤلم . . ويوسف السباعى لا يكتب هنا من باب التسلية كما يبدو للوهلة الأولى ، وإنما هو يكتب بروح « التعاطف » . . فهو مشفق على الإنسان من الهزيمة أو الفشل أو الألم . . والتعاطف ، ليس ضعفا من الكاتب ، فهاهو ذا الدكتور زكريا إبراهيم يتوقف فى كتابه « مشكلة الحب » أمام « التعاطف » ويقول فى ص ٨٠ : « إن التعاطف يكشف لى عن واقعية الشخصية الباطنية للإنسان الآخر ، ويظهرنى على أن له قيمة مماثلة لقيمتى الخاصة . . ولكن – التعاطف – لا يذيب شخصيته فى شخصيتى ولا يقضى على المسافة الجوهرية الواقعية التى تفصل بيننا . . » وهاهو ذا أيضا – ماكس شلر – يقرر : « إن عاطفة المشاركة الوجدانية تمثل وظيفة أولية للروح الإنسانية ، بمعنى أنها حافز فطرى فى الإنسان » – وهذا ما يقرره أيضاً : دارون . . وسبنسر ، بأن التعاطف يمثل كسبا اجتماعياً حققه النوع البشرى الراقى (انظر كتاب مشكلة الحب – د . زكريا إبراهيم – ص ٨١) . .

وهذا هو جوهر « تعاطف » السباعى ، مع شخصية الإنسان

المصرى . . فى مطلع حياته الأدبية . إنه كان يسعى لالتقاط خيوط موقفه هو كأديب ، فجرب قلمه فى التعاطف مع نماذجه البشرية التى كان يختارها من صميم الواقع المصرى المطحون أيامها بنوع قاسٍ من التخلف . . وهو فى تصويره لهذه النماذج البشرية لم يجعل الصراع الدرامى داخلياً فحسب ، ولا خارجياً تجريدياً . . وإنما جعله أحياناً بواقع الملابسات والحدث . . « على حد قول د . عبد العزيز شرف فى كتابه : الرؤية الإبداعية فى أدب يوسف السباعى – كتاب الهلال – ص ١١٠ » .

ولذلك نجد أن كل نموذج بشرى فى قصصه الأولى يحظى باهتمام شديد فى بناء معماره الفنى ، وأبعاده الاجتماعية والنفسية والرمزية ، فالشخص العادى – حتى لو كان يلعب دوراً ثانوياً فى القصة ، فإنه ليس هامشياً على الإطلاق ، وإنما أجاد السباعى توظيفه بوعى ، وبموهبته الفطرية ، ليكون دلالة على واقع مؤلم ، أو ساخر ، أو مضحك تستطيع أن تجده حولك ، ولا بد أن نتأمله ونفكر فى دلالته ، وعندئذ يحقق السباعى هدفه من صوره البشرية كما فعل فى « خبايا الصدور » كمثال ، لبدايته الناضجة فنيا . .

● **مهمة الكاتب : صعبة ! . .**

إن السباعى ، منذ هذه البداية المبكرة جداً لأعماله الأدبية ، أراد أن يقول لقرائه ، فى ص ٥٦ خبايا الصدور :-

— « يخيل إليّ أن مهمة كاتب القصة فى عصرنا هذا ، قد أضحت مهمة شاقة ، فهو لا يجد من حوله مادة دسمة يغذى بها خياله ، فنحن فى عصر برود وجمود . . ليس فيه من الحوادث ما يلهم القصة ويوحى بالكتابة . . وأغلب ظنى أن مهمة أسلافه من كتاب القصة فى العصور السابقة كانت أسهل كثيراً . . حيث كانت الحياة مسرحاً للحوادث المثيرة والمآسى المروعة . . التى تهيئ لهم مرتعاً خصيباً يرتعون فيه بأذهانهم وأقلامهم . . ويسجلون لنا عنها قصصا رائعة . . لأن خير ما كتب الكتاب هو ما استوحوه من باطن الحقيقة وما صوروه من صميم الواقع . . »

هذا هو رأيه المبكر فى مهمة كاتب القصة ، وكأنه يحاول بإصرار وعناد وصبر ، أن ينسج لنفسه خيطاً مضيئاً ، ينير له بداية دوره هو . . كأديب مبدع ، فى حياة مصر ! . .

وبعد أن يحدد — مبدئا دوره « استلهام باطن الحقيقة ، وتصوير صميم الواقع » . . يقدم لنا قصصه ، وكأنه فى معمل اختبار ، ويريد أن يثبت لنفسه أولا . . ثم لنا ، أنه على صواب . ويجعل نماذجه — أو أبطال قصصه ، يمرون بتجارب قاسية لكى يقص من خلالهم « الواقع » والحقيقة . . ليصل إلى نتائج هامة ، وهى أن الأخلاق . . والدين . . والوعى . . والذكاء و . . الإيجابية . . هى أسلحة ضرورية لحماية الجنس البشرى من براثن الخطيئة ، ويزداد تركيزه على أهمية الدين فى بناء

شخصية الإنسان المصرى . . ويمكن القول بأنه يرى أن الإنسان يهوى إلى الرذيلة ، وينحرف ، ويصير فاسداً ، إن هو أهمل الجانب الدينى فى حياته . . وهذا صحيح على كل حال ، لكنه عطاء أغلب قصص السباعى بوضوح ملحوظ . . إنه فى « خبايا الصدور » يحكى قصة نموذج بشرى مصرى ممثلا فى شخص « أرملة حديثة العهد بالترمل » . وكانت فى الثانية والعشرين ، ولم يكن جمالها من ذلك النوع الأخاذ الذى يبهر البصر ، ومع ذلك فقد كانت بها عذوبة – ولاحظ أن هذه هى سمات كل بطلات قصص السباعى ! – وكانت بها رقة ترتاح إليها النفس ، وكان أجمل ما فيها شعرها المسترسل وعيناها الزرقاوان وأسنانها الصغيرة والناصعة البياض . . وبشرتها البيضاء النقية . . كانتْ تلك المرأة فى مجموعها مخلوقاً لطيفا يسر المرء أن يجالسه ويتمتع بسماع حديثه والنظر إليه . . وملخص قصة هذه الأرملة ، أنها كانت تعيش مع أمها على دخل يهيئ لها حياة هنيئة لينة . . ولم تمض مدة على وفاة زوجها حتى بدأ العشاق والمعجبون يلتفون حولها . ، ولكنها كانت تصدهم فى رفق . . وتفهمهم أنها زاهدة فى الزواج مرة أخرى . . ولكن أحدهم كان أشد إصراراً . . « فقد كان بالأرملة الجميلة صبًّا مولعاً » ولكنه كان شابًّا صغيراً على شيء كثير من الوسامة والأناقة . . تبدو عليه مظاهر الثراء . . « وإن كنا جميعا نعلم أنها لا تعدو المظاهر » فما كان أهله يملكون كثيراً ولا قليلا . . وكان والده يشغل منصباً كبيراً فى السلك السياسى . . وإن كان

من « ذلك النوع الذى تحس بأنه منحك منحة بمجرد أن يحييك ويقول لك : كيف حالك ؟ ! . . لقد أضاع هذا الأب ثروته فى اللعب والنساء ، ومازال متمسكا بالمظاهر الخادعة على ثراء موهوم ! . . »

بهذه السطور ، يكون يوسف السباعى قد رسم لنا ملامح شخصيات قصته القصيرة هذه ، ونكون قد أدركنا كيف اختارها من بين النماذج العادية فى حياتنا ، ونشعر بأننا نعرفهم واحداً . . واحداً . . وهذه ميزة فنية امتاز بها يوسف السباعى فى كل قصصه ، حيث يرسم بكلمات بسيطة وقليلة ملامح شخصياته ، وبيئتهم الاجتماعية وسلوكهم الشخصى ، ويوحى لك بدوافعهم النفسية أيضاً . . وهو يسوقهم أمامنا إلى مصيرهم المحدد . . حيث تم زواج الرجل والأرملة فعلا . . ثم أخذت سحب الحب تنقشع عن رأس الفتى ، وبدأ ينغمس فى اللعب . . ولم تمض فترة حتى كان قد استنفد ما كان مع زوجته من مال . . وأخذ يستدين من هنا ومن هناك ! . .

وتنتهى القصة بأن يقتل الولد أباه ، ويساق للمحكمة ، وبرغم براءة الأب والزوجة وأن لا وجه للخيانة ، فإن الزوجة اضطرت فى النهاية أن تعترف – كذبا – بأنها كانت على علاقة بالأب لكى تنقذ عنق زوجها من الشنق . . !

إن الحكاية فى هذه القصة المبكرة للأديب الناشئ – وقتها – يوسف

السباعي . . تكشف عن سعيه الدائب إلى أن « يصدم » القارئ ، خاصة إذا كان – فى بدايته هذه يسعى إلى هدف أكبر وهو : الإصلاح الاجتماعى . . وكان يرى – كما تدل هذه القصص الأولى كلها – أن إفزاع الناس من الشر هو خير سبيل الى نجاتهم جميعا ، وأن خير تحذير هو تصوير مثل هذه المأساة الميلودرامية ، ولعل هذا – من الناحية الاجتماعية – يدلنا على بواكير وعيه الفكرى . . وتطوره نحو « الثورية » بعد ذلك . . حيث كان فى « خبايا الصدور » يوظف أدواته الفنية المتاحة ، وطموحه الفكرى النابت برعمياً ، فى سبيل هدف إصلاحى ، وإن أخذ شكل الموعظة ، أو النذير من مغبة الإسراف فى الشك بلا أساس ، ومن إفراط الآباء فى تدليل أبنائهم ، ومن هوس بعض الشباب بلعب القمار ، أو السهر فى أماكن لا أنيس فيها ولا جليس إلا الشيطان وعشاق وسواسه الخناس . .

ويكفينا من هذه القصة ، أنها تضع أيدينا على البدايات الأولى لطريق السباعى بعد ذلك ، إنه كان يوظف عاطفة الحب ، وعناصر المكان والزمان ، ومكونات البيئة ، فى حكاية محبوكة درامياً لكى يصل بنا إلى هدفه بدون وعظ مباشر ، أو بأقل قدر منه على الأصح . .

وهو لا يفعل ذلك من باب التسلية ، أو الترفيه على قرائه ، بل هو يسلك مسلك الكتاب العظام بجرأة غريبة على سنه – وقتذاك – يقتحم عقول قرائه . . وكأنه يدعوهم للبحث معه ، والمناقشة ، وإبداء الرأى . .

وهذا ما عرفه بعد ذلك بعض نقادنا ، بأنه « الفن الملتزم » . . . مع أنه فى قلب كل فنان وفى عقله وفى موهبته يسرى كأنه غريزة أخرى وأقوى . .

● متعة الفهم !

إن يوسف السباعى منذ هذه ، منذ بداياته الأولى ، كان يسعى إلى تحقيق متعة المشاركة العقلية مع قرائه ، وهذا ما سماه « أرنست فيشر » — فى كتابه الاشتراكية والفن : ص ١٩ : « إن الأديب الحق ، يجب أن ينمى لدى الناس متعة الفهم والإدراك . . ويجب أن يدربهم على الاغتباط بتغيير الواقع . . ويجب أن يعلمهم كيف يشعرون بكل الفرحة والرضا اللتين يشعر بهما المكتشف والمخترع ، والمؤلف وبكل النصر الذى يستشعره الفائز على الطغيان . . » و . . سؤال : وهل فعل السباعى غير ذلك ؟ ! . .

إنه فى مجموعته القصصية التالية مباشرة ، كان يخطو إلى مواجهة ظاهرة مع قرائه ومجتمعه . . كان يختبر كل قواه النامية وأفكاره المتوهجة . . كان يشدد الهجمة على الظلم الاجتماعى . . وهذا ما يضعنا مباشرة أمام « أبو الريش وجنينة ناميش » . .

● الهجاء الاجتماعى ! . .

لكل أديب أسلوبه ، وأسلوب السباعى بدأ منذ هذه المجموعة

– أبو الريش – يتحدد فى مزيج ساحر من السخرية المحببة ، والهجاء اللاذع . . أيضا . .

فها هو ذا يصور نموذجاً بشرياً ، يستحق الهجاء القارس . . لأنه يجب أن ينقرض من حياة مصر ، لتقل عيوبنا ، ولكى ينجو الإنسان المصرى من شرورها . . والنموذج هنا ، هو « الشيخ على لوز » الذى كان ماسح أحذية ، ثم سرق صندوقاً ، وصار مساعد أراجوز . . لإبراهيم بندق . . ثم التحق بعمل فى تياترو . . أبو الريش . .

واتسع رزقه . . وأضحى أراجوزا فى النهار ، وبلياتشو فى الليل . . ثم فضل حب « عزيزة » على التهريج . . وأصبح بائعاً متجولا يبيع « فرقع لوز » و . . فجأة . . جاءته فرصة عمره . . مات الشيخ زكى خادم ضريح أبو الريش . . وأصبح المنصب شاغراً . . وببساطة وانتهازية ، صعد « على لوز » إلى منصب خادم الضريح ، واستغل سذاجة الناس وصار مسكنه « وهو حجرة رطبة فى دور أرضى بحارة أبو الغزالات فى المدبح . . ضيقا عليه ! . . » وبدلا من : لوحات التنشين فى التياترو . . و « فتح عينك تاكل ملبن » . . أصبح « ولياً » مزيفاً ، يدعى التدين ، ويشفى المرضى ويقضى الحاجات للبسطاء والجهلة ! . .

فى هذه القصة الهجائية ، يشتبك السباعى – كما سيفعل فى كل قصصه التالية مع القارئ فى حوار عقلى ، يريد أن يوقظه به ، يريد أن يضع يديه على الجرح ، يريد أن يتحمل كل إنسان مسئوليته فى أى خطأ

يقع . . يريد الكف عن السلبية ، يريد أشياء كثيرة تستحق الاهتمام من عقول قرائه ، وباختصار : يتجاوز مرحلة المتعة العقلية . . على روعتها كهدف إنسانى وفكرى للأدب ، ليصل إلى مرحلة النقد الموجه لعقل المتفرج والقارئ أولا ! .

والسباعى ، بطريقته الهجائية ، يدعم موقفه كبناء عظيم للشخصية المصرية ، ويستحق الثناء الذى ناله من بنت الشاطئ وأنور المعداوى ، ثم من د . طه حسين الذى قال عن أسلوبه الهجائى اللاذع :

« أسلوب القصة عند السباعى ، فيه الفكاهة الحلوة التى تصور خفة روح الكاتب حين يصف الدعابة والعربدة . . والمجون . . وفيه الدعابة المرحة التى تصور وداعة الأطفال ونقاء نفوسهم وسذاجة أعمالهم وأقوالهم . . وفيه إلى جانب ذلك كله ، هذا الجد المر الذى تنخلع له القلوب وتضطرب له الضمائر أشد الاضطراب . . »

ولعل هذا خير ختام للمرحلة الأولى من المراحل الثلاث التى تنقسم بينها قصصه . . فى نظرتها للإنسان المصرى ، فى بطولته وتسجيل السباعى لجوانب هذه البطولة ، متمثلة – فى هذه المرحلة ، فى محاولة الإفلات من براثن الانحراف والسقوط أمام ضغوط الحياة . . أو بسبب سوء التربية ، وانتشار الجهل والفقر والفساد الاجتماعى فى تلك الأيام التى شهدت إثبات وجوده المبكر كأديب يبدأ حياته، ويؤسس دوره الإيجابى على خير وجه ! . .

يا أمة ضحكت ! . .
وبداية الموقف الثورى

● قبل الدخول فى تفاصيل المرحلة الثانية من مراحل النمو الفكرى عند السباعى ، وبداية موقفه الثورى ، فى معالجة جوانب البطولة فى الإنسان المصرى ، ومشاكل مجتمعه ، يحسن بنا أن نتوقف قليلاً أمام جذور هذا الموقف فى أدبنا المصرى ، لنتلمس على هديه طريقنا فى أدب السباعى . .

كان يوسف قد قرأ كتابات والده – النقدية اللاذعة ، وكان معجباً بشجاعة والده فى هجومه النقدى على رجال الحكم دون خوف ، من أجل إصلاح حال الناس والمجتمع . . وكانت هذه هى البذرة الأولى ، التى حفرت فى وجدانه نهراً صغيراً . . صاخباً ، بدأت أمواجه تضطرب وتدفعه دفعاً إلى جذور الفكر الثورى ، فنهل منه ، وعرف الكثير عن كبار مفكرينا الإصلاحيين الذين بدءوا بالدعوة للإصلاح الاجتماعى . . وكم من فكرة إصلاحية ، صنعت موقفاً ثوريًّا بعد ذلك . .

مثلاً . . عندما قال الأفغانى – فى قهوة متاتيا جملته الشهيرة !
« عجبت لك أيها الفلاح تشق الأرض بفأسك . . فَلِمَ لا تشق بها صدور

ظالميك » . . كان يقولها على المقهى . . وربما مشى بعدها لبعض شأنه ، لكنها رسخت فى وجدان واحد مثل « الشيخ محمد عبده ، وآخر مثل : عبد الله النديم . . فكان أن صار الشيخ محمد عبده أكثر الثوار فى مجال الإصلاح الدينى ، وصار النديم محرضاً لعرابى حتى قام بثورته الشهيرة ضد الخديو ! . .

وهكذا ! . . عاد السباعى إلى تاريخنا القديم والحديث . . وساعده دوره الذى اختاره لنفسه ، كمهندس معمارى فى مجالات « إصلاح الحياة الكئيبة ، بشيء يكسبها بعض الجمال والرونق ويمنحها بعض النور» . . ساعده ذلك الدور المنشود» على أن يتتبع جذوره الفكرية ليقف على أرض صلبة ، ومن يقرأ « بين الأطلال » سيجد أدلة كثيرة ، تشير إلى أنه قرأ قاسم أمين جيداً وناقشه جيداً أيضاً ، ومن ثم فقد طور دعوته لتحرير المرأة . . بل أكثر من هذا . . أن السباعى ، لابد قد قرأ رفاعة رافع الطهطاوى ، باعث النهضة الفكرية ، فى مصر ، على عهد محمد على باشا ، لأن هناك علاقة وثيقة بين أفكاره الثورية ، وبين ما دعا إليه الطهطاوى منذ عام ١٨٦٠ – أى من ١١٨ سنة كاملة . وخاصة فى موضوع النهضة الثقافية ، وبناء الأسرة المصرية أو تحرر المرأة . . وقد يدهش بعض النقاد ، والقراء الذين سالت دموعهم – أو تدفقت احتجاجاتهم ، وهم يطالعون إنى راحلة . . وبين الأطلال . . ونادية . . وغيرها . . وليت المندهشون يعيدون قراءة السباعى ، وعندئذ

سيكشفون أن كنزاً فكريًّا ضخماً ، يوجد بين دفتى كل قصة كتبها فهو لا يلهو بقلمه ، ولا يتاجر بشعارات زائفه ، وإنما هو يعرف دوره . ويدرك أنه حلقة فى سلسلة التطور الفكرى المصرى ، وأنه بداية جيل روائى كبير ومؤثر ، وكان عليه أن يضيف شيئاً جوهريًّا إلى من سبقوه ، وهذا ما فعله ، منذ صدرت له رائعته «نائب عزرائيل» عام ١٩٤٧ — وهى أول رواية له ، وثانى كتبه مباشرة ، إنه فى هذه الرواية يناقش جوانب الشخصية المصرية من كل الزوايا . . وبمختلف ألوانها ساخراً مرة ، متهكماً مرات ، ناقداً لاذعاً حيناً ، متعاطفاً ، كل الأحيان ، لكنه وراء طموحه الفذ ، يريد أن يغير الصورة الكئيبة للحياة . . يريدنا أن نغيرها معه ، ونحن نبتسم ! . .

ففى نائب عزرائيل ، يحدد على لسان بطله ، وظيفة الحب فيقول :

— الحب شيء لابد منه لكل كائن حى . . إنه كالهواء الذى نتنفسه ، ولابد من الحب مادامت الحياة . . فالكائنات الحية لابد لها من التوالد والتكاثر ، ولابد لحدوث التكاثر بين الجنسين . . لابد للتقارب من جاذبية تدفع أحدهما إلى الآخر . . هذه الجاذبية هى ما يسمونه الحب . . »

وقد يبدو هذا الكلام ، بديهيًّا ، عن الحب ، ولكن . . لابد أن نضع فى الاعتبار أن السباعى يناقش فى قصته هذه مسألة الموت والحياة . . والحوار يدور سجالاً وساخناً وساخراً بين نائب عزرائيل وبين

رجل أرض مثلنا . . فى الوقت الذى يحمل فيه هذا النائب قائمة بها أسماء واحد وعشرين شخصاً كان موتها مقرراً أن يتم فجائيًا . . منذ البداية . . وهذه حالة اختارها السباعى بذكائه ، لكى « يتخلص من كل القيود » لأنه سيناقش مسألةً مازالت تحير العلماء وبعض المتدينين وكبار المفكرين والأدباء . . وهى مسألة : الحياة الدنيا . . وما فيها من شقاء لا يطاق . . ثم الموت الفجائى ، والانتقال للعالم الأخر . .

وقد أذاب السباعى الفواصل بين عالمى الموت والحياة – على حد تعبير يوسف الشارونى – ففى مسرحيته « أم رتيبة » يتم اتصال الأحياء بعالم الأموات بأكثر طريقة ، وعبد الصبور . . متنبئاً بموته وأن روحه ستعود يوم الأربعين ، ثم تتحقق نبوءته ، فيموت فجأة ، ثم تعود روحه ، وتحدث المفارقة . . ويدعونا السباعى – بشكل فنى راقٍ إلى التأمل ، وإلى الاهتمام ببناء حياتنا بالحب ، بالتعاطف ، بالفهم . . بالعقل . . بل هو شديد الإحساس بأهمية العقل للإنسان وكأنه يردد معى الآن ، قول « هيجل » : إن العقل جوهر الحياة . . وجوهر الأشياء . . » والعقل وحده يدلنا على صدق قول السباعى :

– الحياة تستحق أن تعاش . . برغم أن الموت – فى نائب عزرائيل – يهبط فجأة ، وأن الناس لو أدركوا الموت على حقيقته وما فيه من سهولة فما الذى يبقيهم لحظة على قيد الحياة ؟ . . »

إنها دعوة صريحة للحياة . .

لكن أى حياة ؟

الحياة التى تتسع لبطولة الإنسان العادى الذى يريد – ويجب أن نساعده على أن يغير ظروفه للأحسن وللأفضل . . الإنسان الذى يجاهد مجموعة من العقبات الأذلية المتكررة من عصر لعصر ، وكأنها تحديات لفكر الأدباء والمصلحين الاجتماعيين على السواء . . ،

● **يا أمة ضحكت ! . .**

إن التقديم السابق كان لابد أن يطول ، لأن هذه المجموعة القصصية ، على وجه الخصوص ، تشكل علامة بارزة فى عالم السباعى كروائى ، وكمفكر ثورى ، وكمصلح اجتماعى من قبل ذلك . . ففيها جرب فكرته الإصلاحية ، وجعلها شعلة متوهجة تحرق كابوس الظلام الذى يحاصر وجدان الإنسان المصرى ، ويزيد من محنته ، فى عام ١٩٤٨ . .

أن السباعى يبدأ كتابه مستنفراً عقول قرائه . . لتفكر معه . . وتبحث عن الذين يقصدهم بهجومه المبكر العنيف . . . عندما يقول : «إلى الحمير الكبار . . أهدى كتابى هذا فنهم قد استلهمت وَحْيه . . واستوحيت حكمته . . ليتهم يقبلونه . . ويقرأونه . . ويفهمونه . . ثم يستحون ويعقلون ويندمون علي ما يفعلون . .

أيها الكتاب . . ألاَهلْ بَلَّغْتُ ؟

لا أظن . . فما من حمار منهم سيعترف بأنه حمار . . واحسرتاه على الإهداء . . لقد ذهب هباء في هباء ! . .

هذا هو إهداء السباعي المستفز الداعي لكي نشحذ عقولنا ونبحث : من هؤلاء الحمير ! . . وما أثرهم على حياة الإنسان المصري ؟ .

وبعد ذلك . . تأتي مقدمة الكتاب ، لنؤكد ما ذهب إليه اجتهادنا ، من أن تحول يوسف السباعي من كاتب يتعاطف مع المظلومين إلى كاتب إصلاحي جاد يرهص ببداية ثورة فكرية بحق ، وقد تم هذا التحول . على يد والده ، أو بسبب إعجابه بشجاعة والده . .

وها هو ذا يقول – «ص ١٥٩ – ١٦٠ –» : إنه – أبي – يستحق مني أن أهدي إليه – لا كل كتاب – بل كل كلمة أكتبها ، فما أراني إلا بقية منه . . أو تتمة له ، وما تحرك قلمي للكتابة إلا بفضله ، وما تأثرت في حياتي بشيء كما تأثرت بكتابيه : الصور والسمر . . »

إذن . . فهو يبدأ ، يا أمة ضحكت ، باستفزاز لنوع خاص من الحمير التي سودت حياة الإنسان المصري ، مكملا ومطوراً هجوم والده على «الوزير» والملك نفسه» في «الصور» . . ومستفيداً من ذخيرته الحياتية ، والفكرية التي حصلها أيضاً من قراءاته للحكيم ، فهو أحبهم إلى نفسي وأقربهم إلى قلبي» ص ١٦٠ ، كما أفاد من كتابات : المازني : «وهو أكرم الكتاب ، وأدمثهم خلقا ، وأكثرهم تواضعا وعلاقتي به على

خير ما يرام «– و «العقاد» وطه حسين . . وعباس حافظ . . وغيرهم . . » .

وفى «يا أمة ضحكت» . . نتذكر قول «هنرى برجسون» فى كتابه «الضحك» الذى عربه سامى الدروبى وعبد الله عيد الدايم فى نفس عام صدور كتاب السباعى . . وهو عام ١٩٤٨ . .

وبرجسون يحدثنا عن «الضحك الذى تبعث عليه خاصة الأمور الهزلية ، والضحك عمل إنسانى ، و «الضحك ينشأ من أناس مجتمعين ، يتجهون بانتباههم إلى واحد منهم – أوْ عيب اجتماعى ظاهر – بعد أن أخرسوا عاطفتهم وتركوا العمل للعقل وحده . . ثم . . ما هى بعد ، النقطة الخاصة التى يتجهون إليها بانتباههم ؟ . . وفيم يستعمل العقل هناك ؟ . . إن الإجابة على ذلك . . تعنى الإحاطة بالمشكلة عن كثب ومحاولة حلها ، بعد إعمال العقل فيها ! . . » .

هذا ما يقوله برجسون ص ١٧ من كتابه . .

وهو نفس العمق الفلسفى الذى نلمسه بنفس الوضوح الفكرى ، من خلال قصص يا أمة ضحكت . . وأرض النفاق من بعدها . .

إن السباعى إذا كان قد قرأ برجسون ، فهذا واجبه كأديب يعد نفسه إعداداً جيداً لدوره التاريخى . . وإذا لم يكن قد قرأه – آنذاك – فالأمر إذن فى نطاق عبقرية فذة ، وهبتها مصر للسباعى ، لتجعله فارس أحلامها لربع قرن كامل من الزمن ! . .

إنه فى « يا أمة ضحكت » يناقش قضايا اجتماعية غاية فى الخطورة ، ويريدنا أن نكف عن الهزل ، وأن نتوجه بعقولنا اليقظة نحو هذه المشاكل ، لنفكر فيها تفكيراً جيداً . . وأول هذه المشاكل التى أصابت الإنسان المصرى وكان يجب إنقاذه منها ، ليتفرغ بكفاحه البطولى إلى بناء ما ينقص بلده فى شتى المجالات . . أول هذه المشاكل : الجهل . . والسباعى يقول عنه « ص ١٦٣ » : « أما الجهل المركب . . فمصابه ثقيل . . فهو جهل أولئك الذين لا يظنون بنفوسهم جهلاً . . أولئك القادرون المسيطرون المترفعون . . المتكبرون . . الذين يكسون أنفسهم طلاء زائفاً من الفهم والذكاء . . ويبهرون غيرهم بمظهرهم الكاذب الخادع فيتولون أمر سواهم . . ويتحكمون فى مصاير غيرهم . . والجهل فى باطنهم متأصل متحكم ! . . »

وهو يهاجم هذه الكارثة الاجتماعية ، من خلال أبطال قصته وهم « تسعة » ! . . « تسعة حمير » ! . .

ومكان الحدث – أو الحادث – كان ميدان المذبح . .

وأما الحمّار – بتشديد الميم – أو صاحب هذه الحمير ، فيضع خرجه على أحدها أو بجواره ويظل قابعاً ينتظر ، فهو ليس فى حاجة إلى أن يجهد نفسه بالصياح على بضاعته كما يفعل غيره من الباعة . . ومع ذلك فزبائنه يتزايدون ! . .

وفى حواره الذكى ، يكشف السباعى ، ص ١٦٨ ، ص ١٦٩ عن

إعداده لنفسه لاقتحام ميدان أوسع لمواجهة حاسمة مع نفس هذا الموضوع ، فى «أرض النفاق» بعد ذلك كما سترى ! . .

إنه هنا – فى يا أمة ضحكت» . يسأل :

– وما هى بضاعتك يا عم أبو جهل ! . .

قال : جهل ! ! . .

– أنت تبيع الجهل ؟ ! ! . .

– ماذا يدعوك للدهشة . . أبو جهل يبيع الجهل ويحمله فى خرجين فارغتين فوق حمار . . أية غرابة فى ذلك ، أنا رجل صريح . . مكشوف . . أم ترى لابد من النفاق والموارية . . فأسمى نفسى الشيخ عبد العليم . . وأضع بضاعتى فى الصحائف والكتب ! . .

– ولكن لمن تبيع الجهل ! ! .

– قلت لك . . كل الناس زبائنى . وكلهم يقبلون على . .

– ولكنى كنت أظن أن لدى الناس من الجهل ما يكفيهم . . وما يجعلهم فى غير حاجة إلى بضاعتك ! . .

– وإنهم لكذلك . ولكنهم لا يشبعون من الجهل أبداً . . وهم طماعون يريدون دائماً أن يزدادوا جهلاً فوق جهل . .

– لابد أن خير أسواقك التى تصرف فيها بضاعتك كائنة بين الرعاع وحثالة الشعب ! . . .

– إن خير زبائنى هم فعلاً حثالة الشعب . . ولكنى لا أظنك تقصد

بحثالة الشعب ، ما أعنيه أنا بحثالة الشعب . . فنحن مشتركان لفظاً . . ومختلفان معنى . . قل لى . . ماذا تعنى بحثالة الشعب ؟ ! . .

– أولئك الجهال الأميون الذين يرتعون فى الجهالة . .

– مازلنا متفقين فى الألفاظ . . قل لى ماذا تعنى بالجهال الأميين فسر أكثر . .

– أعنى أولئك الفقراء الذين لا يملكون أجر تعليمهم . . والذين . .

– كفى . أنت جاهل . . لقد كنت أعرف أن هذا ما تعنيه . . لا . . إننى لم أعن بحثالة القوم أولئك الذين تعنيهم . . بل أعنى النقيض . . أن حثالة القوم عندنا هم الطرف الأخر الطرف الأغر . . الذى يرتع فى بحبوحة من العيش والنعيم . . والجهالة والأمية . . »

● وهكذا يستمر الحوار الذكى ، المباشر ، بين الراوى الذى يتخذ دوره المؤلف ، وبين صاحب الحمير ، وينتهى الأمر إلى جولة يقومان بها بين الأحياء والحوارى والأزقة ليريه الرجل أنواع الجهالة المتفشية فى الناس . . مثل السلبية الإرتزاقية لدى بعض المتمسحين فى الدين ، والدين منهم برىء ومثل القوم المخابيل الذين لا يحسون بشىء من حولهم فى حلقات الأذكار . . حول ضريح لا يعلمون من هو صاحبه . . ثم . . يشن هجومه المباغت على فساد أجهزة الحكم . . آنذاك . . « ألا ترى كيف يتعاقبون على كراس الحكم . . فلا تكاد تمر الأيام حتى يفضحهم جهلهم المركب الذى يحصر أذهانهم فى دائرة ضيقة ، فتراهم إما أن يفعلوا

الخطأ . . أولا يعقلون شيئاً أبداً . . »

● وهنا يكمن الداء . . والدواء ، والسباعى يضع الأمر أمام عقول الأذكياء . . ليفهموا . . ويتحركوا . . عام ١٩٤٨ . . وهذه بطولته المبكرة حقًّا ، إذ كان يومها ضابط فى الجيش الملكى ، وها هو يصدر كتاباً – بل كتباً ، يحرض فيها على إنقاذ مصر من فساد الملك وفساد نظامه السياسى والاجتماعى والاقتصادى . . كله ! . .

●● نابغة الميضة :

جرثومة أخرى ، يهاجمها السباعى بقلمه الساخط فى هذه القصص ، ويشدد هجومه عليها لأنه يراها ركناً من أركان التخلف الذى أسلمنا للاستعمار . . إنه هنا باختصار ، يقدم قصة ومثالاً لأحد الزعماء الذين سرقوا الحكم من الشعب ، بانتهازية ونفاق للملك ، أو هو الملك ذاته ، لا فرق . . الكل سواء فى الفساد – البطل هنا اسم : إبراهيم الْعُقْب . « لا يعرف فك الخط . . لمَّام سبارس » صار زعيماً لجامعى أعقاب السجاير فأصبح اسمه « العقب » واشترى كارتة ، ثم أصبح وكيلاً لجمع « زبالة » الجيش الإنجليزى . . فزادت ثروته . . وضاقت به « الميضة » خلف جامع السيدة زينب . . وضاق صدره بمناظر الناس الفقراء المساكين الجوعى . . الذين يُقاومون الموت ببسالة تستحق أن يهرب منها « العقب » إلى وسط البلد . فى مسكن فاخر ، ثم . . شجّعه

صبيه « دقدق » على دخول الانتخابات . . « المسألة لا تحتاج لفك خط ولا تحتاج لأى حزب . . ادخل « مستقل » والفلوس تساعدك ! » . .

وارتفع شعار : انتخبوا المرشح المستقل . . إبراهيم العقب . . لكى تحصلوا على الغذاء والكساء ! . . وبالفعل ، يفوز العقب ، لا لمبادئ أو علم أو مواهب بل بالنقود و . . ليحيا العقب وليحيا قانون الانتخابات ! . . »

إنها مواجهه حقيقية بين السباعى وبين النظام السياسى الذى زاد تعفنه فى البلد . . كان الثائر الذى بداخله ينمو بسرعة وكان تمرده كمفكر وأديب يزداد عنفا ، وتحديا ، وكان يوشك أن ينزل ساحة الصدام اليدوى – أو الحربى – مع الملك وأعوانه الذين خربوا مصر . . وأهانوا بطولات الإنسان المصرى فى كل بيت وكل قرية ومدينة ! . .

ولكن الوقت كان ١٩٤٨ . . ولم يكن وجدان مصر قد قرر الثورة الحاسمة بعد . . كان فى مرحلة الاحتمال . . والصبر وكان الجنين يتخلق . . ينمو . . يرهص بالآتى بعد حين قريب ! . .

●● أرض النفاق :

وشاء السباعى ، أن يوجه هجمة أدبية أقوى . . وأعنف ، فأصدر خالدته – فى اللغة العربية و(١٧) لغة عالمية . . رواية « أرض النفاق » ليطور كل ما قدمه لنا فى « يا أمة ضحكت » . . وينسج من حبال الصبر

المصرية ، والنكتة المصرية اللاذعة ، والنماذج البشرية المطحونة ، والانتهازية ، أضخم بانوراما أدبية عرفت حتى الآن ، للمجتمع المصرى العريض العريق ، بكل آفاته ، وبطولات أبنائه ضد هذه الآفات ، و . . كل ألوان الحلول التى يعرضها السباعى ، على ذكاء القارئ ، ليتخير منها ما يشاء ، ليغير من كآبة الحياة ! . .

إن أرض النفاق ، على حد قول عبد المنعم شميس فى الاهرام يوم ٢٥/٢/١٩٧٨ . « أرض النفاق هى البرزخ الفاصل بين عصر مضى قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وعصر آت بعد قيام هذه الثورة .

إن أرض النفاق تمثل قمة الانفجار الفكرى الذى يفصل بين مرحلة ومرحلة ، وقد كتبها وهو ضابط فى سلاح الفرسان ، فجاءت مثل قصيدة الشعر الكبرى التى ندر وجودها منذ انتهى عصر البارودى وشوقى وحافظ ،، و . . إلى جانب ذلك ، فقد كانت هذه الرواية هى التأصيل الحقيقى للرواية المصرية ، كفنّ مصرى شديد المحلية ، فصارت أشهر رواية مصرية عالميا ، لأنها مصرية اللغة ، والشخصيات ، والأحلام ، والمتاعب ، وإنسانية فى نفس الوقت ، وروحها وأحداثها يمكن أن تقع فى أى مجتمع فى العالم ، لذلك ، أثارت دهشة الجميع ، لأنهم رأوا أنفسهم من خلالها . . كانت مرآة صادقة تعكس آفات النفاق ، والجوعى ، والفقراء ، وأحلام الثراء والطمع والطموح والزهد ، و . . باختصار . . كانت هى ذلك الرجل المصرى الذى يبيع فى دكانه كل

الألوان من حبوب الشجاعة ، والجبن ، والصدق ، والذى يتعاطى حبة من هذه الحبوب ، يملك أن يغير الدنيا على أرض وطنه ويعالج المشاكل ، أو يزيدها . . وكانت المصرية هى (دكانة) العطار الخالدة التى . . انحرقت دكانته من كثرة الصبر ، إن تعليقات كبار الكتاب أحاطت عنق السباعى بالمديح لأول مرة ! . بسبب هذه الرواية ، ولعل خير ختام لهذا الفصل ، عن المرحلة الثانية من مراحل تطور السباعى فى معالجته للبطولة فى الإنسان المصرى . .

هو قول محمد فريد أبو حديد :

- « السباعى . . خلقه الله لنوع فذ من الأدب . . لم يستطع غيره إلى الآن أن يبدع فيه كما أبدع السباعى . . وقد كان لنا كتّاب يملكون أسواطاً لها ألاهيب ، مثل ألهوب السباعى . . كالمازنى . . رحمة الله عليه - وكان مارك توين - الأمريكى - يكتب بمثل هذه الروح ، ولكنه بلا شك يختلف عنه كثيراً . . فالسباعى لا غيره يستطيع أن يكتب بمثل هذه القوة التى تشبه فى نوعها قوة صاحب الهراوة الغليظة عندما ينزل إلى زفة ليشتت شمل أصحابها . . وأن ما فى مجتمعنا المصرى من عيوب فى أشد الحاجة إلى من يصورها - كما صورها السباعى ، ومن يهوى عليها بهراوته الضخمة مثل ما نزل السباعى بقلمه وفنه وفكره ! . . »

نفحة الإيمان . .
وثورة الحب

● فى طريقنا إلى ذروة ثوريته الأدبية وقمة مواقفه الفكرية فى رواياته : رد قلبي وما بعدها . . نلتقى بعملين لابد من الإشارة إلى مكانتهما فى موضوعنا ، فلهما صلة وثيقة ببناء الشخصية المصرية ، بل وفى صفحاتهما نفحات إيمان قوى ببطولة الإنسان المصرى – رجلاً وامرأة وطفلاً – فى مقاومة الخوف ، والتخلف والعبودية ، والموت ! . .

● **السقا مات :**

ولا أريد التوقف أمامها كثيراً ، للتشاؤم الثقيل الذى تثيره فى نفسى ، ربما لأن الحديث عنها كثر بعد اغتيال السباعى غدْراً فى قبرص يوم السبت ١٨ فبراير ١٩٧٨ ، وربما لأسباب أخرى ، لكن الدراسة الأدبية ، لا دخل لها بهذه الأمور – أعرف هذا ، ولهذا سأوجز حديثى عنها . فأقول ، إنها ملحمة شعبية ، تذكرنا بملاحم القدر . . التى عاشها جلجاميش البابلى ، أو أزوريس المصرى ، أو يونس فى محنته مع الحوت ! . .

إن « السقا . . شوشة » كان نجم « ذرب السماكين » فى باب الفتوح والحسين وبجوار شارع الجيش ، وكان ملء السمع والبصر ، صحة ومرحاً ، وبساطةً ، وهو لا يحاول إجهاد فكره – على حد قول د. نبيل راغب – أهرام ١٩٧٨/٢/٢٥ – ولا يحاول فهم كنه قدره ، ولكن كل ما يعلم أن الطريقة الوحيدة – أمامه ، لقهر القدر . . هى الاستسلام له . . ولا يرى « شوشة » أية عبقرية – أو جدوى – فى مقاومة الموت

إن السقامات ، حدثت حوالى عام ١٩٢١ – فى حىّ الحسينية ، ومازال مسرح حوادثها قائماً كما هو . . وقد تكون كف السنين بدلت وجهه بالفناء والهدم والبناء والتنظيم . . إلا أن الكثير من علاماتها المميزة مازالت قائمة على حالها ، لم يخن عليها الدهر ولم يبدلها الزمن . . » .

هكذا يبدأ السباعى ملحمته « السقامات » . . وكأنه يريد أن يقول : إن المكان قد يفوق الزمن ذاته خلوداً ، إذاً . . إذا أخلص الإنسان بناء هذا المكان ، وإذا أجاد وأتقن العقل البشرى تأسيس أركان البنيان .

إن نسيج الإنسان المصرى ، يظهر قويًّا فى صبره وشموخه ، من خلال الشخصيات الأخرى فى الرواية . مثل : عم جاب الله – الحارس الأسود لقصر إبراهيم بك جاد الكريم ، وهو القصر الذى يسميه أهل الحى « السراية الكبيرة » . . وهو مسرح الشقاوة والمرح لسيد الدنك ، وهو يسرق الجوافة . . ويشغله السؤال : ما هى السرقة ، ويضرب طفولته ، وهناك أيضاً : حسين القرداتى ، وعم سلامه

الطعمجى ، وشحاته « أحد الافنديات المتعاملين مع الحانوتى الحاج « سرور » . .

ومعركة الصراع على صنبور المياه ، والرزق ولقمة العيش ، والحياة ، بين شوشه والدنك وعلى دنجل . . وكأنما صراعهما ، أو تسابقهما لا على كرسى « السكان » وإنما على . . الموت ! . . لكن الموت ، لا يعطل عقل الإنسان عن التفكير فى تحسين الحياة وتجميلها ، وقد أراد السباعى أن يجعل كلا من شخصيات القصة – المأساة : مرحاً مهزاراً طروباً ، وكأنه من نوع لا يمكن إلا أن يحب ! . . وأن نحبه نحن أيضاً ! . .

● ● بين الأطلال :

من الموت إلى الحب ، والعكس صحيح تماماً ، فى عالم السباعى القصصى ، لنصل إلى رائعته العاطفية – ظاهريًا – بين الأطلال ، كنموذج يغنينا هنا عن كل قصصه الرومانسى . . إن السباعى ، فى هذه الرواية التى صدرت عام ١٩٥٢ ، وأهداها إلى « الملهمة النائية أينما كانت . . وكيفما كانت . . « كانت كأنها محاولة من السباعى لكى ننتهى من معركة جانبية – وهامة ، ليتفرغ لمهمته المقدسة النهائية ، وهى . . الفعل الثورى وربما جاء تاريخ صدورها حدًّا فاصلاً بالفعل بين المرحلة السابقة ، من دعوته للإصلاح ، وتتويجاً لبعض جوانبه ، ثم التمهيد ، لمشاركته « الضباط الأحرار » عملهم فى الثورة . . لإنقاذ مصر ، وتغيير

تاريخها المعاصر كما سنرى ! . .

ففى بين الأطلال ، حدث درامى ساخن يتحول إلى ميلودراما باكية ، عندما تكتشف المعشوقة « سامية » أن حبيبها « كمال » هو توأمها . . إذ شبه لها ذلك بسبب الملابسات الجسيمة التى قد يختلف معها النقاد . . لكنها أسالت دموع ملايين القراء والمشاهدين لهذه الدراما الحزينة على شاشة السينما ، منذ عشرين سنة . . وللآن ! . .

لكن القضية الكبرى ، التى تاهت من النقاد ومن القراء على السواء ، فى هذه القصة ، هى قضية استكمال البناء الأساسى للشخصية المصرية ، بإنجاز وتنفيذ ما نسميه بتحرر المرأة . . فالمأساة الحقيقية فى « بين الأطلال » حدثت بسبب « عدم احترام الحب » ، وعدم تعليم البنات .

وها نحن أولاء نجد « سامية » نموذجاً راقياً للبنت المصرية ، كإنسانة لها حقوق آن لها أن تطالب بها . . و « سامية » كما يصفها السباعى : مخلوقة ذكية . . مفرطة الذكاء . . شديدة الثقة بذهنها ، وسلامة تفكيرها ، وقد دفعها هذا الاعتداد بعقلها ، إلى الانكباب على الدراسة والميل إلى التحصيل والاندفاع وراء الشهادات . . كانت تلميذة أكثر منها أى شيء آخر . . لكن أمها تريد أن تزوجها . . ولا داعى للشهادات !

ومرة أخرى ، أود أن أشير إلى الخلفية الفكرية التى لابد أن السباعى استند إليها بوعيه وذكائه ، إنه يلتقط نهاية الخيط من والده ، فى مقالاته النقدية بكتابه « الصور » . . حيث توجد عدة مقالات بعنوان :

الزواج – البيت – العائلة . . حيث يقول السباعى الأب :

«جرى بيني وبين صاحب لى ، ذكر الزواج . . فسألته : هل حمدت الزواج ؟ . . قال متهكماً : نعم أحمد الزواج حمد الذى لم ينعم ، ولن ينعم بالمرأة إلا فى دواوين الشعراء» . . ثم قال :

– «نحن نبصر الواحد إذا أراد أن يشترى متاعاً : كثوب ، أو ساعة ، أو حذاء ، لا يخطر بباله أن يتولى شراء أى هذه الأشياء !) أحد سواه ، فإذا وكل ذلك إلى آخر ، عجب الناس وقالوا : أبله . . ورب الكعبة . ثم لا يمتنع أحدهم بعد ذلك من تكليف امرأة مّا شراء زوجة له . . كأن الثوب أو الساعة ، أجل خطراً من الزوجة . . وتعود الخاطبة فتصف من خَطَبَتْ ، والفتى منصت يصدق كل ما تقوّل ، حتى هذه المرأة الجاهلة بوجوه الحسن وأسرار الجمال ، تماثل فى صدق النظر ، وبراعة الوصف ، الشاعرَيْن الكبيريْن . . ابن المعتز ، وشكسبير ، أو المصور العظيم رفائيل ، ثم يحدث بعد ذلك ما هو معلوم . لدى كل إنسان . . » .

ويذكرنا السباعى ، بما قاله جان جاك رسو إن الحب المتبادل ، يجب أن يكون أول العقود بين الزوجين ، يجب أن تكون العين والقلب أدل رائدين للزوج والزوجة ، لأنه لمّا كان أول واجبات الزوجية عقب الاقتران هو إخلاص أحدهما الحب للآخر . . ولما كان الحب مما لا يملكه الإنسان ، بل هو اضطرارى ، أصبح ذلك الواجب يستلزم واجباً

أسبق ، وهو التحاب قبل الزواج ، هذا هو قانون الطبيعة .

ولهذا أقول ، إنه لابد قد عرف ما قاله رفاعة الطهطاوى – بعد عَودته من باريس عام ١٨٦٠ ، فى كتابه : المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين واهتمامه بتعليم المرأة . . ويرى الطهطاوى ، أن تحرر المرأة أو تسلمها قياد نفسها ، لا يؤدى بالضرورة إلى الانحراف لأن المرأة الفاضلة لا يخشى عليها من الحرية واستقلال الإرادة . . « ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معاً ، لحسن معاشرة الأزواج ، فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك . .

فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلاً . . ويجعلهن بالمعارف أهلاً . .

ويمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجل . . على قدر قوتها وطاقتها ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، . . والعمل يصون المرأة عما لا يليق ويقربها من الفضيلة . . »

هذا بعض ما قاله الطهطاوى من ١١٨ سنة . . وهو نفس ما ردده – بتوسع – قاسم أمين بعد ذلك بخمسين سنة ، وهو ما جاء ذكره عند جان جاك روسو . . ومحمد السباعى ، وطه حسين والحكيم ولطفى السيد و د . محمد حسين هيكل ، وغيرهم من الذين مهدوا الأرض جيداً ، ليصل السباعى بفكره المتوثب لعلاج كل قضايا الوطن ، فيأخذ القضية على عاتقه ، ويصوغ قصة « بين الأطلال » ليجعل « سامية » هى النموذج

الذى أراده والده ، والطهطاوى وجان جاك روسو . . إنها بنفس الدقة التى وصفها الطهطاوى – أو تخيلها – و « سامية » فى ص ١٣ : تدرك أن طريق التعليم والشهادات هو طريق استقلال المرأة ، وحصولها على حريتها فى التصرف فى الحياة والْبَتّ فى مصير نفسها . . »

ونص كلام السباعى ، يقول أيضاً :

– «كانت سامية تعرف أن سبب الاستعباد هو العجز والحاجة ، فالمرأة مستعبدة . . لأنها تجلس على قارعة طريق الحياة منتظرة من يأخذ بيدها ، فيأويها ويطعمها ويكسوها ويعطيها (اسما) ومعاشاً . . إن مصيرها فى الحياة وأملها فى الأرض معلقان على عابر السبيل الذى سيتناولها من بين آلاف المنتظرات ليسير بها فى ركب الحياة ، وبغير هذا تقضى العمر مترقبة تتلهف فى إعياء وبأس . . (حمق) ! ! . .

إن بطلة السباعى – هنا – ساخطة ، ثائرة ، على واقع مهين تعيشه ، وتعيشه معها كل بنات جنسها – مستضعفات فى الأرض ، وأنا لا أميل إلى القول بأن « سامية » هذه هى الرمز الحى الواضح لمصر . الأم والمعشوقة ، المستعبدة بسبب جهلها ، وتخلفها ، لا أميل إلى هذا برغم وضوح إمكانيات أن تكون « سامية » هى الرمز حقّاً ، الذى يستنهضه السباعى وينطقه ببنات فكره ، وحكمة وطنه ، لأننى لن أخسر شيئاً إذا تعاملت مع سامية (بوصفها) فتاة ، إنسانة مصرية ، عادية ، لديها طموحها ويجعلها الكاتب محور روايته ليعالج هذا الطموح الذى وصل

بالفتاة إلى شهادة الدكتوراه ومأساة الحب الذى لم يأت فى وقته المناسب ، وبصورته الصحيحة ، لأن البيت كان قد تهاوت أركانه ، بسبب ما يحذر منه الطهطاوى ، وروسو.. والسباعى الأب والابن ! . .

● ولعل الختام المناسب لهذا الفصل ، هو ما قاله د . محمد مندور : « السباعى أديب قاهرى لا يقبع فى برج عاجى . . بل ينزل إلى الناس . . والأسواق . . ويضرب فى الأزقة والدروب ويلتقط طموحات وآلام الإنسان المصرى العادى ويصوره فيجيد تصويره ، كاشِفاً عن حساسية وعْيه الاجتماعى ، وتطوره الفكرى فى معالجة قضايا بلده ، وهذا تأكيد جديد من جانب السباعى ، على أن الفن الراقى ، لازم للإنسان حتى يفهم العالم ويغيره . .

يوسف السباعى شاهد على عصره . .

● بمسئولية الشاهد العادل على عصره ، وبضمير المشارك فى الفعل الثورى ، وبصدق الفنان ، وأصالة المصرى الذى بنى أجداده الأهرامات والمعابد وابتكروا للدنيا أبجدية اللغة وقواعد الهندسة وأبدعوا القصة والشعر والحكمة قبل العالم بآلاف السنين ، بشهادة «ول ديورانت» نفسه فى «قصة الحضارة» ، بكل هذه الصفحات ، كتب يوسف السباعى رواياته الأخيرة ، منذ : رد قلبى ١٩٥٤ – ثم طريق العودة ١٩٥٦ – ونادية ١٩٦٠ – جفت الدموع ١٩٦١ – ليْل له آخر ١٩٦٤ . . أقوى من الزمن ١٩٦٦ – نحن لا نزرع الشوك ١٩٦٩ لسْتَ وحدك ١٩٧٠ – ابتسامة على شفتيه ١٩٧١ . . العمر لحظة ١٩٧٣ . .

وقبلها جميعاً ، كُان قد نشر روايته «البحث عن جَسَدٍ» عام ١٩٥٣ ، وفيها رؤيته لشخصية الثورى الذى يجب أن يكون ، والذى كانت مصر فى حاجة إليه : وذلك من خلال روح ثائرة تريد حل مشاكل المجتمع المصرى وتطويره ، وأى الأجساد يكون مناسبًا لهذه الروح الثائرة ، التى ترفرف فى السماء بحْثاً عن جسد يناسب ثورتها ، وفكرها

الجديد ، وحلمها بالبناء المنتظر . . إن حيرة هذه الروح قد حسمت أخيراً ، عندما انضم كاتبها السباعى إلى « الضباط الأحرار » وشارك فى الحل العملى – اليدوى – الحربى الثورى المباشر فى تحطيم قيود مصر ، وكان مع الثوار وهم يطردون الملك ، وهم يحلمون بإعادة النظام والإصلاح لكل ما فسد فى حياة مصر . . و . . اختار القلم والرواية والإنشاءات الثقافية العديدة ، و . . بدأ يمارس قلمه ، فى طريق الثورة .

● **رد قلبي . . العدل والعقاب :**

كأنما استلهم السباعى ، إلى جانب حكمة مصر وجذورها الفكرية ، رأيا حديثا جاء فى كتاب : العدالة والحرية – تأليف ج . لوجس دكنش ، ترجمة وتعليق محمد بدران – وقد صدر بالقاهرة ١٩٤٣ . .

وجاء فيه : « إن كل من أوى شيئا من العقل لا يستطيع أن ينكر أن الطبيعة البشرية فى تغير مستمر ، يجعل ما ليس مستطاعاً الآن . . مستطاعاً فى المستقبل ، والواجب عليكم أن تغيروا طبيعتكم قبل أن تغيروا نظمكم . . بشرط ألا يكون ذلك معطلا للتقدم والرقى . . وهذا هو ما قصد إليه السباعى بروايته « رد قلبي » التى يؤرخ فيها لقيام الثورة ، ويصور بطولة الإنسان المصرى الذى صنع هذه الثورة – الحلم – من عرقه وجوعه وشقاء العمر كله ، وكأنه أحسّ – فى البداية – أن هناك من هم فى حاجة إلى الإقناع ، لغرض فى نفوسهم ، بجدوى الثورة ، أو

أهميتها ، أو فى قدرتها على تغيير نظام الحياة كلية على أرض مصر . . ولهذا كتب روايته بحماس المقاتلين ، ليواجه أولئك الذين لم يجربوا مثل هذه الثورات النفسية التى أرقته ومن قاموا بالثورة ، ومن نادوا بها على صفحات كتبهم الأدبية من قبل ، وكان يحس بأن خيال المعارضين ضيق ، ومحصور فقط فى دائرة أعمالهم ومصالحهم الشخصية ، وأنهم بالتالى عاجزون عن رؤية الحقائق ، وهى أن الثورة ، قامت بأبناء الشعب لتحقيق العدل الاجتماعى الذى نادى به طه حسين . .

قد يغنينى رواج القصة – كفيلم سينمائى – عن الإفاضة فى تلخيصها ، لذا أسارع إلى القول بأننى فيما أعتقد – أرى البطولة الحقيقية فى هذه الرواية ، لشخصية عادية جدًّا . . وليست فى شخصيات أعطاها السباعى لواء البطولة عبر صفحايت قصته ال ١٠٠٥ – وأعنى بهذه الشخصية ، «الريس عبد الواحد» . . الجناينى ، البسيط ، الفقير ، الذى استطاع أن يحتمل العذاب الرهيب ، والتجويع ، والتهديد بتحويله إلى مستشفى المجانين . . والإصابة بالشلل ، والجوع والفقر ، و . . . . احتمل كل هذا ، ببساطة وعظمة أى أب مصرى واستطاع أن يعبر بأسرته بحار العواصف والليالى السوداء ، ويجعل ابنيه : ضابط بوليس ، وضابط جيش ، حيث أسهم الأخير فى قيام الثورة . . ببطولة واضحة ، لكنها ليست فى روعة البطولة التى نسجها السباعى من قماشة الشعب المصرى الأصيل فى شخصية الأب «عبد الواحد» . . ولعله لهذا

السبب ، ولما سبق ذكره من أسباب تحديه للظلم ، والمعارضين للثورة ، و . . ربما لهذا كله قال فى مقدمتها . . « إننى خلال العام الذى كتبت فيه القصة . . كنت أرى فى كتابتها أهم ما فى حياتى ، وأن كل عمل يجب أن يتضاءل إلى جوارها حتى أنتهى منها . . وأننى لم أكن أخشى فى أوقات المرض أو التفكير فى الموت إلا أن أموت قبل إتمامها ، لقد كنت أخشى عليها أولا ثم على زوجتى وأمى وأولادى ! ! . .

إلى هذا الحد ، يكون حماس أصحاب اليقين ، والدعوة الثورية الذين يخاطرون بخوض أعتى المشاكل ، دون أن يهابوا الموت ، طالما الهدف هو . ممارسة التزام وطنى تجاه الأهل والمجتمع كله ! . .

ونحن نلمس ذلك فى ثنايا شخصية « على » ابن الجناينى ، الذى يعذبه عذاب والده ، فينعكس ذلك على سلوكه ، أباءً وكبرياءً ، وتصميما على التفوق . . وعلى اقتحام امتحان المدرسة الحربية . . « الكلية الحربية الآن » لكى يكون ضابطاً . . لماذا ؟ . . إنه يسعى للخلاص من الرق . . والعبودية ، ويسعى لإنقاذ والده وأمه – وأهله ، من نفس الرق ، ونفس العبودية ، ولكنه لا يملك سلاحا سوى إرادته ، وكان فى حاجة إلى سلاح آخر . . أن يكون ضابطاً وعندئذ يملك أن يمارس الفعل الثورى وينفث عن غضبه ضد الأمير الملكى الظالم وابنه الطائش ، وكل من على شاكلتهم فى نهب المزيد من دم الإنسان المصرى ، بلا رحمة و« على » و« سليمان » زميله ، وغيرهما ، كانوا يريدون إنزال العقاب

بالفاسدين الظالمين . . ولكن الرغبة مرت بمراحله . . أهمها ، أنهم ،كانوا يظنون أن مجيء الملك فاروق بدلا من والده الفاسق « فؤاد » سيحل المشكلة ثم صدموا . . بدا لهم أفظع من والده . . وكان لابد من العقاب . . والإعداد الجيد لهذا العقاب ، . . لأن العمل الحاسم . . سيكون ثورة ! . .

وكل منهم يعلم بشعور خاص – قد يكون غامضا – بداخله ، أن الثورة ستحقق حلماً خاصّا جدّا به ، ومن مجموع هذه الأحلام الخاصة . . يتبلور الحلم الأكبر والأهم . . إن « على » مثلا ، حلم حياته أن يتزوج من « أنجى » ابنة الأمير ، الذى أذله وأذل والده وآلاف غيرهم . . وأنجى تهواه ، وتريده زوجاً . . لكن الفوارق الطبقية مذهلة ، ولابد من انقلاب دموى لتحطيم هذه الفوارق . . إن السباحة العاطفية لا تحقق فوزًا فى عواصف البحار الصاخبة ، ومن هذا الحلم الخاص جدّا ، تحول « على » إلى مؤمن بالحلم الأكبر وهو . . تغير الأساس الأصلى لنظام الحكم ، والوضع الاجتماعى كله فى مصر . . لابد من إلغاء الإقطاع ، وإعادة تنظيم العلاقات الاجتماعية على أساس اقتصادى سليم . . يعطى لكل ذى حق . . حقه . . حلم وردى رائع . . من أجله ضحى آلاف الشهداء فى مصر . . فهو حلم : الحرية والعدل ! . .

وهو حلم لا يتحقق إلا بالفكر الوطنى . . الذى يجب أن يخطط أيضاً لإنتاج الثروة بشكل جيد قبل الانغماس فى عدالة استهلاكها لأن الخلل

كان قد أعطب مرافق البلد ، وأن العداء الحقيقي أتى من الدخلاء على حوض النيل» على حد قول الدكتور جمال حمدان فى « شخصية مصر» ص ٢٥٧ . .ولكن . . هل فكر الثوار فى تجييش الفضائل اللازمة من الإداريين ، وخاصة أن سير التاريخ تدلنا على أن رخاء مصر وازدهارها اقتصاديًّا واستقرار العمران فيها ، كانت جميعاً رهناً برقى أو تدهور الجهاز الإدارى الذى تغلغل كالشريين فى الحياة المصرية ، فما أكثر الأوقات والمجاعات التى تجتاح الوادى – إذا ما فسد هذا الجهاز الإدارى أو عطب – وحسبنا هنا أن نشير إلى قصة سيدنا يوسف أيام المجاعة ود. حسين فوزى يقول فى «سندباد مصرى – ص ١٤٤ : «لا نعرف بلداً يتأثر أهله بالحكم صالحاً أو فاسداً كما يتأثر أهل مصر ، ولا نعرف بلداً يسرع إليه الخراب إذا ساءت إدارته كمصر ! . . كما يرى أن الحكم الصالح يقى مصر شر الفيضان العالى والواطى . . وكل ألوانهما ! . .

وهذا كله ما يجعل لقصة « رد قلبى » مكانة خاصة لأن السباعى ناقش فيها « الأحداث الخطيرة التى وقعت فى تاريخنا المعاصر . .

•• نادية . . والأختيار الصعب ! .

لعلها نبوءته المبكرة ، للتحديات الصعبة التى سنواجهها « مصر – الثورة » ، وقد أثبتها فى السطر قبل الأخير من « رد قلبى » ، عندما قال : « فى الحياة لا تتحقق أحلامنا إلا بعد أن تعتصر دماءنا » – ص

١٠٠٤ . . وهى نبوءة ، تجعلنا نقفز عدة سنوات ، من عام ١٩٥٤ . . حيث صدرت « رد قلبى » . . إلى عام ١٩٦٠ حيث صدرت « نادية » ، ثم إلى عام ١٩٧٣ ، حيث صدرت « العمر لحظة » . . فالروايات الثلاث وثيقة الصلة ، متصلة التجربة ، متتابعة المواقف عن مراحل الاختيار الصعب الذى كان على الإنسان المصرى أن يواجهه ، بعد أن ثار فعلا ، وبعد أن جاءت ثورته ، بصفحة جديدة تسجل أحداثاً تاريخية ، عن تحويل مسار الاقتصاد القومى من الإنتاج لمجتمع النصف فى المائة ، إلى مجتمع الكفاية والعدل ، ومن عصر تسوده أحلام الطبقة ، إلى عصر آخر ، ثورى ، يتسع لأحلام جميع الطبقات – وخذ كمثال ، تجربة بناء السد العالى ، التى خلدها السباعى فى مسرحيته « أقوى من الزمن » . . وبرهن فيها على عمق أصالة الإنسان المصرى وصلابته ! . .

لعلى بالسطور السابقة . ، قد بررت السبب الذى جعلنى أعبر السنوات الفاصلة بين « رد قلبى » « ونادية » ، وهى ست سنوات ، لكى نتابع معا موقف السباعى ، الثائر ، من أحداث التاريخ التى اندفع إنسان مصر ببطولة عظيمة لتحقيها على أرضه . . وهذا ما رصده السباعى بحسه الفنى ، ووعيه الفكرى ، وبثورته التى كانت قد وضعته داخل الضمير المصرى كاتباً ، ومؤرخاً ، وثوريًّا اجتماعيًّا ، بمسئوليات واضحة فى قيادة الحركة الثقافية ، والأنشطة السياسية والأدبية لدول آسيا وأفريقيا ، حيث أنشأ لها « منظمة التضامن . . الأفرو آسيوية » بكل أجنحتها الفكرية

والأدبية ، فى قلب القاهرة ، وهنا .. لابد أن نتوقف لحظات أمام السطور التى يبدأ بها السباعى .. قصته الطويلة «نادية» :

يقول يوسف السباعى :

– «مرة أخرى أشعر بمسئوليتى ككاتب يعيش فى فترة مملوءة بالأحداث التى تغير مجرى التاريخ فى وطنه ..» .

ثم يلخص السباعى ، تطوره الفكرى ، وموقفه الثورى ، مع الإنسان المصرى ، فيقول :

– «عندما كتبت «أرض النفاق» .. و «وراء الستار» .. و «البحث عن جسد» .. و «يا أمة ضحكت» .. كنت أعكس بها ما استقبلت من انفعالات سببها إحساسنا بالفساد والفوضى التى كانت تدفع حياتنا ، وتتركنا فى سخط وضيق ولهفة تملأ نفوسنا على شيء يخلصنا من حالة الضياع التى كنا نعيش فيها .. وعاصر جيلنا هذا الشيء الذى كنا نتلهف عليه ، وحدثت الثورة التى أعادت لنا إحساسنا بالكرامة ... ووضعتنا حيث كنا نتمنى دائماً أن نكون ..» .

ويضيف السباعى . موضحاً لقراء «نادية» فى مقدمة – لعلها من أهم ما كتب من مقدمات لقصصه .. فيقول :

– «وأحسست بمسئوليتى ككاتب وضابط عاش فى تلك الفترة التى انتهت بالثورة .. وعانى كل التجارب التى مرت بها ، وأحس بالانفعالات التى أحس بها أصحابها» . أحسست بمسئوليتى التى تدفعنى

إلى تسجيل كل هذه الحوادث والتجارب والانفعالات التى سبقت الثورة وأدت إليها . . وكتبت « رد قلبي » بقدر ما أملك من جهد وقدرة وأمانة .

ثم يشير السباعى ، إلى ضخامة الأحداث التى يصنعها الإنسان المصرى – الثائر – فيقول فى نفس المقدمة الهامة :

– « ويبدو لى أن جيلنا من الكتاب قد منحه الله من الأحداث الضخام ما هيأ له زاداً من مصادر الإلهام والانفعال . . فلم تكد تنتهى أحداث الثورة حتى بدأت أحداث التأميم والعدوان والانتصار فى بور سعيد !

« ومرة أخرى ، أحسست بمسئوليتى إزاء الأحداث الكبار التى جعلتنا فى التاريخ شيئاً مذكوراً . . والتى جعلت من الأيام التى نعيش فيها أياماً لها على الزمن قيمة ! . . » .

وبعد هذا التحليل التاريخى لأحداث الثورة ، ولموقفه كروائى وكمسئول منها ، يعود إلى موضوع قصته « نادية » فيقول :

– « وكتبت هذه القصة التى جرت حوادثها فى الفترة التى تلت الثورة ، والتى امتلأت بالحوادث الضخمة التى انتهت ببور سعيد »

لقد أطلت ، بل نقلت معظم ما قاله يوسف السباعى فى مقدمته لقصة « نادية » وذلك ، لأنه – لأول مرة ، يتحدث فى بداية قصة له ، عن تطور فكره كأديب ، ولأول مرة ، يفصح عن « ثوريته » وعن

« التزامه » لنجده ، أقوى ما يكون الالتزام تجاه قضايا المجتمع ، وهمومه ، وأحلامه ، وكأنى به يذكرنا ببداياته القصصية ، وبمراحل تطور نظرته فى تناول هذه القضايا الاجتماعية المعاصرة له ، منذ نشأته فى أتون ثورة ١٩ ، وكأنى به يوضح : لماذا اتجه إلى كتابته ما كتبه فى مرحلة الرومانسية فى البداية ، ثم تركه إلى مرحلة الإصلاح الاجتماعى . . وبعدها . . إلى العمل الملتزم الثورى . . كما سبق لى أن أوضحت .

إن السباعى ، بتحليله لموقفه ، بنفسه ، ومن خلال – وجهة نظرى التى رأيتها باجتهادى الخاص – غير المسبوق من النقاد والدارسين – فى مراحل تطوره الفكرى الثلاث ، يجعلنا نصدق ما يقوله « ارنست فيشر » – أحد الأئمة الفكريين للواقعية الاشتراكية الهادفة فى الفن لدى أغلب النقاد عندنا ، . . نصدقه حين يقول :

– « لقد بدأت الرومانسية ، كحركة احتجاج من جانب البرجوازية الصغيرة على كلاسيكية النبلاء . . وعلى القواعد والأنماط ، وعلى الشكل الأرستقراطى ، وعلى المضمون الذى استبعدت منه جميع قضاياه العامة « من الناس . . » صـ ٨٢ – كتاب الاشتراكية والفن . . ولقد كان السباعى ، يجعل من رومانسيته الأولى ، احتجاجاً ، وسُخْطاً على الجوانب الملكية والحزبية الفاسدة التى تحاصر الإنسان المصرى ، وبعد ذلك دعا للإصلاح ، كما سبق أن قلت ، وجاء هو ليؤكده بتحليله فى مقدمة « نادية » . . ليصل إلى قمة التزامه الفكرى والاجتماعى . . وقيامه

بالعمل الثورى . و . . هذا ما تحمله لنا «نادية» لا بالحدوته العاطفية الدافئة ، فقط . . ولا بالدراما المأساوية فى شخصية التوأمتين . . «نادية» و «منى» وغرامهما المحزن . . المشبوب بالأحلام . . ولا للنضج الفنى الواضح فى صياغتها ، وإنما أيضاً لنظرته العميقة فى «الجرح» الذى أصاب جسم الوطن ونظام الثورة ، فى تحديها للاستعمار . . ثم . . لاستنباته بذور الأمل من جديد ، فى نفس «نادية» ، ونفوس كل الناس المجروحين المصدومين ، اليائسين من استمرار الثورة أو نجاحها فى التحدى ، إنه يستنبت الإرادة المصرية ، من داخل الوجدان المصرى العميق الجذور . . ويقول . . فى صفحة ٤١٨ –

– «ويعلم الله ما تزخر به نفْسى من انفعالات مستمدةً من باطنى . . ومما حولى . . من هذا الجو الصاخب الذى نعيش فيه . . والذى يملؤنا – نحن المصريين – إحساساً . . بأن علينا أن نخوض كفاحاً شاقاً من أجل حريتنا وكرامتنا . . إحساساً يملؤنا يقيناً بأننا نصنع مستقبل بلادنا . . ونثبت دعائم الرخاء للأجيال القادمة . . فى هذه الأيام التى نعيش فيها» . . برغم ما تنزفه نادية . . ونزفه نحن أيضاً من دماء ! . .

●● العمر لحظة ! . .

إن المسافة من عام ١٩٥٦ . . وعدوانه الثلاثى الغادر ، إلى عام ١٩٦٧ . . وهزيمته الثقيلة . . هى أحد عشر عاما ، انشغلت فيها مصر

باستكمال دورها في المنطقة . وسعت الدول المجاورة للوحدة معنا . . كما صور السباعي ذلك في « جفت الدموع » ، ثم وقع الانفصال ، واحتج السباعي في « ليل له آخر » . . و . . دعمت مصر الثورة الفلسطينية ، وأحيت القضية كلها ، فسجل السباعي ذلك في « طريق العودة » ثم كانت الهزيمة في ١٩٦٧ . . وردت مصر بدعم فعال حول اللاجئين إلى ثوار حقيقيين يقاتلون معركة الكرامة ، وسجل السباعي ذلك في « ابتسامة على شفتيه » ! . .

وهكذا . . عن العمل الثوري في الداخل . . وتطوراته السياسية خارج الحدود المصرية ، كان قلم السباعي يكتب ، وكأنه نذر نفسه لأن يترك للأجيال القادمة ، أصدق تسجيل أمين « للأحداث الضخمة التي عاشتها مصر الثورة » . .

وفي العمر لحظة . . يرد السباعي عنا الجرح . . أنه لا يخدعنا بالتهوين من شأن ما حدث . . بالعكس . . هو يقول ! إن ما حدث كان فظيعاً . . وإن كان متوقعاً لبعض التقصير ، ولكن . . مهما كان حجم المأساة ، فالإنسان في بلدنا قادرٌ على أن يمحو هذا العار . . وأن « يضيء هذه الحياة الكئيبة ! . . » .

وهو يبدأ « العمر لحظة » برد الاعتبار للإنسان المصري :

« هذه القصة تقع أحداثها في أواخر ١٩٦٩ . . وأوائل ١٩٧٠ . . خلال الفترة التي سميناها بحرب الاستنزاف . . » ولقد سجلت هذه

الفترة ، أروع بطولات الجندى المصرى فى معارك العبور وضرب المدفعية وعمليات القناصة وتوغل الكوماندوز إلى أعماق العدو . . وفى معارك الجو والبحر التى أكدت قدرة الجندى المصرى فى المواجهة ، ومنحت العدو أياماً مرهقة ، وأهدته أكبر قدْرٍ من الخسائر . . » .

* * *

إن قصة العمر لحظة ، من الناحية العسكرية . . تصور بطولات إنسان مصر الشجاع فى معارك شدوان ، الجزيرة الصخرية ذات الشُّعَب المرجانية التى تقع فى البحر الأحمر ، على مدخل خليج السويس . . فى الشمال الشرقى للغردقة . . والجنوب الغربى لشرم الشيخ ، والتى يبلغ طولها ١٦ كيلو متر ، ويتراوح عرضها بين ثلاثة وخمسة كيلو مترات . . ولم تكن قواتنا فى الجزيرة تتجاوز المائة ، لحماية فنار وجهاز الرادار البحرى الصغير ، اللذيْن وضعا من أجل إرشاد السفن ليلاً . . . . ولقد واجهت القوة المصرية قصفاً جويًّا بالفانتوم والسكاى هوك ، كما واجهت هجوماً بكتيبة مظلات . . إسرائيلية ، تزيد على الخمسمائة جندى . . وقاتلت إرادة مصر من خلال أبنائها ، ببسالة وشجاعة ، ومن خندق إلى خندق ، و . . يقول السباعى :

– «كانت المعركة – هنا – رمزاً لصلابة الجندى المصرى . . وجرأته وفدائيته . . » .

* * *

هذا عن الجانب العسكرى ، الواقعى ، الذى نقلته وكالات الأنباء العالمية والمحلية عن معركة شدوان ، التى جعلها السباعى محور روايته هذه ، أما عن الجانب الفني ، أو الحدوته ، فهى تحكى ، كيف أن « نعمت » الصحفية ، المصرية ، التى يوجعها جرح الهزيمة ، ويؤرقها الحلم المصرى فى عبور الهزيمة بأسرع ما يمكن ، بعد إصلاح « البيت » من الداخل ، وتخليصه من العناكب أو العقارب . .

ومن صناع الهزيمة ، كيف أنها تمردت على عملها الروتيني ، المزيف للواقع المصرى . . و . . ترفض كتابة الموضوعات الإنشائية عن « الميني جيب ما زال مسيطراً » . . و« فتيات الجيشا فى خدمتك » . . وأحست بأنها يجب أن تكتب شيئا « للشعب » . . للمرأة العاملة للفلاحة ! . . صحيح أن تمردها كان أيضا عن رغبة شخصية ، حتى « لا تتهم بالرجعية ، والانعزالية . . وعدم التلاحم . . إلخ . . كما كان شائعاً فى الستينيات من تجار الشعارات الذين ضربوا « البيت من الداخل » وجعلوه يسقط عند أول صدمة فى يونية ١٩٦٧ . . ويحتاج إلى جهد عملاق يبذله الإنسان المصرى الوطنى الأمين . . المخلص . . لكى « يرأب الصدع » المخيف ! . .

لكن . . « نعمت » . . وهى هنا تطور فني وفكرى طبيعى جدًّا ، لشخصية « سامية » فى « بين الأطلال » و« عايدة » فى إنى راحلة . و« أنجى » فى « رد قلبي » . . و« نادية » فى « نادية » . . فهى . . خطوة .

تضيف وعياً فكرياً لهذه الشخصيات كلها ، وهى . الفعل الإيجابى ، الذى حلمت به هذه الشخصيات أيضاً ، وهى التى تحمل على عاتقها ، توصيل فكر السباعى ، البعيد الجذور فى قصصه ، عن دور المرأة المصرية بوصفها نصف المجتمع ، وبوصفها مطالبة بأن تعمل .. وتفعل .. وتصدم بالواقع ، وتحاول أن تتغير ، وتغير فى البناء الاجتماعى لنفسها ولبلدها أيضا ..

إن نعمت ، ينتهى بها صدامها مع واقعها إلى الاختلاف مع زوجها – رئيس التحرير المدلل ، و .. تترك البيت والعمل مع زوجها وتذهب إلى .. الجبهة .. لتعيش معركة عمرها .. إنها – رمز قوة وشجاعة ، للمصرية التى تريد أن تحيا .. أن تستر وعيها .. روحها .. أن تواجه الخطر بنفسها ، من خلال أبنائها وإخوتها : جنود وضباط الجيش ! ..

والتقت نعمت بمحمود عبد الله – مقدم الصاعقة .. صاحب الحنجرة القوية .. ومدعى الشراسة .. ونشأت صداقة .. وطيدة بين مدعى الشراسة .. المقدم ، والنقيب نعمت « اللى زى اللوز » ص ٤١ .. كانت قد أنهت كل الإجراءات وقدمت الأوراق اللازمة لإدارة الخدمات الطبية .. وفى مستشفى المعادى ارتدت الثياب العسكرية .. قبل أن ترحل وراء – المقدم الشرس محمود .. إلى السويس .. ثم من موقع إلى آخر ، ومن معركة استنزاف إلى معركة

أخرى . . تنصهر خلالها معادن الرجال ، وتذوب حبًّا وشوقاً وصلابة في الحق . . والدفاع عن كرامة . . مصر . . الأم . .

وفى المواقع العسكرية ، الملتهبة بالقتال فى أية لحظة . . وبعمليات العبور . . لمواجهة العدو فى عمليات خاصة وانتحارية . . تلتقى نعمت بنماذج من الجنود . . والعناصر البشرية المصرية بمشاكلها . . والمصرية بطموحها . . والمصرية ببساطتها ، وكأنما أراد السباعى أن يقدم « بانوراما » عريضة لكافة فئات الشعب ، وهم يحاربون رغم أن مشاكلهم تثقل كاهلهم . . بسبب تعنت أولئك الذين لا يقومون بواجبهم من موظفى الإدارات الحكومية من بعض المدنيين . . ومن خلال قيام نعمت متطوعة بحل أغلب هذه المشاكل ، استطاعت الدخول إلى البيوت المصرية فى القرى . . وفى الأحياء الشعبية ، فتلتقى وجها لوجه بالأصالة الحقيقية ، داخل الآباء والأمهات والإخوة والأخوات والأبناء والبنات ، الذين لهم أخ أو أب . . أو زوج . . أو ابن ، يتمرغ فى الرمال ويحمل السلاح بعناد وكبرياء دفاعاً عن . . مصر . . ومن بين من نلتقى بهم نعمت . . وتحل مشاكلهم الجندى عبد العزيز وحبيبته السويسية « سعدية »

إن عبد العزيز هنا ، يلخص نماذج مصرية كثيرة من رجال الموقع ، إنه محب للحياة ، وعاشق لسعدية ويحلم بأيام يرى فيها ابنه قد صار رجلا ، يحيا بلا متاعب وبلا حروب و . . لكنه – عبد العزيز – يمسك

بأسير للعدو . . وفى لحظة واحدة انحنى العسكرى الإسرائيلى الأسير على قتيل إسرائيلى بجواره وسحب سلاحه ثم صوبه نحو عبد العزيز وأطلقه و . . تعثر عبد العزيز . . ثم سقط شهيداً ! . .

وتعود « نعمت » بعد تحرير « شدوان » . . وهى تبتلع مواجعها بعد عملية البتْر التى قامت بها . . وأرادت أن تواصل حياتها فى هدوء . . « إن عملها فى الجيش كان تجربة . . استفادت منها الكثير . . ولكن . . كانت تشعر دائماً أن عملها الصحفى . . هو الأصل » ص ٤٠٧ .

* * *

وهكذا . . يمكن أن ننهى هذا الفصل – أيضا – بقول د . طه حسين :

« يظهر أن يوسف السباعى قد أزمع أن يكون المؤرخ القصصى لعهد الثورة ، كما يصنع بعض كبار القصاص الغربيين بالقياس إلى الأحداث الكبرى التى تحدث فى أوطانهم متأثراً بفكر – ولتر سكوت – أو كان يبتكر هذا النوع من القصص التاريخى . . فقد صور السباعى – كما رأينا الآن – شبوب الثورة ، تصويراً رائعاً فى « رد قلبى » ثم صور تأميم القناة وما تبعها من أحداث فى « نادية - . . و . . »

من حق أن أضيف ، أن طه حسين كان قد رحل عنا قبل أن يضيف سطراً عن « العمر لحظة » . . التى صور فيها السباعى أحداث ١٩٦٧

يوسف السباعى . .
وقضية الحرية ! . .

فى ختام بحثنا عن أبعاد بطولة الإنسان المصرى فى قصص السباعى ، لابد لنا من وقفة تأمل طويلة أمام تناوله لبطولة الإنسان العربى عامة ، فى قصته الشهيرة : طريق العودة – ١٩٥٦ – وابتسامة على شفتيه – عام ١٩٧١ – وهما معاً عن فلسطين ! . .

ثم . . جفت الدموع ١٩٦١ – وليل له آخر ١٩٦٤ . . وهما معاً أيضا ، عن الوحدة بين مصر وسوريا ، ثم الانفصال بينهما ! . .

* * *

●● طريق العودة . .

●● ابتسامة على شفتيه

برغم اتّساع الفترة الزمنية بين صدور الروايتين إلا أن موضوعهما واحد ، وأحداثهما متكاملة ، فالقصة الأولى : طريق العودة ، تحكى كيف صار الفلسطينيون مشردين ولاجئين بسبب إخطاء بعض قادة العرب عام ١٩٤٨ ، وبسبب غفلة وسلبية بعض قادة الشعب الفلسطينى المنكوب ، والقصة الثانية تكمل التطور الذى صنعته مصر فى قضية فلسطين حيث

جعلتهم يمسكون بالبندقية ويتحولوا من لاجئين تائهين فى الأرض إلى فدائيين مسلحين يقاتلون من أجل حقهم .. ومصر هى التى فعلت ذلك ! . .

* * *

ود . .طه حسين قال فى مقالته المطولة عن يوسف السباعى فى كتاب : الفكر والفن فى أدب يوسف السباعى ، «أن طريق العودة ، قصة رائعة . . بأوسع معانى هذه الكلمة وأدقها ، وما أعرف أنى قرأت للأستاذ السباعى بعد قصته البارعة — السقا مات — شيئا يشبه طريق العودة فى روعتها وإتقانها وإمتاعها . ، ولقد قرأتها مرتين إعجابا بها ورضى عنها ! . . » .

والقصة تبدأ فى أعقاب موقعة عنيفة بين المصريين والإسرائيليين ، والاستعداد لمعارك أخرى تالية ، و . . هنا نلتقى ببطلى القصة وهما : إبراهيم ، ضابط فى سلاح المهندسين . . ومراد . . وهو ضابط فى سلاح الفرسان . . وكانا على النقيض ، فالأول ضائق الصدر بالدنيا وبالناس وبنفسه ، لأنه يحب الإنشاءات المعمارية ، ويريد أن يجدد فيها ، لأنه صاحب فن ، و«أن طبيعته الفنانة الخالصة ، لم تستطع أن تقبل نطاق الوظيفة الضيق ، ولم تحتمل مواهبه أن تقيد إلى مركز محدود الإنتاج . . »

إن الأزمة الحقيقية للضابط المهندس إبراهيم هى — ولاحظ وصف السباعى لها : «كانت هندسة الإنشاء والتعمير فى دمه وفى كيانه ، وكان

يريد تنفيذ الكثير . فشيء ما لابد أن يحدثه فى هذه الحياة الكئيبة . . شيء يكسبها بعض الجمال والرونق . . ويمنحها بعض النور» . . ص ٩ — أليس هذا هو السباعى بنفسه ، وبرؤاه . . وأحلامه ؟ ! . . إن أبطال وشخصيات الكاتب هم جزء من ضميره وعقله وأحلامه أيضا . . والسباعى أجاد تصوير إبراهيم ، كما أجاد رسم شخصية نقيضه وزميله « مراد » . . وهو شخص ، مرح ، مطمئن ، مرح ، مسرف فى الشغب . . لا يشغله إلا أن يمرح ويفرح ، وكان يحصل على إجازاته ليذهب إلى الإسماعيلية ليلهو ليلا . . بعيداً عن عمله فى العريش ، وبعيداً عن روجته ليلى «التى تشقى وحدها فى قيظ القاهرة» . .

ويحدث أن تلتقى « مديحة زوجة إبراهيم وليلى زوجة مراد . ، وتعيش الأسرتان سويا فى الجبهة . . بالعريش . . حيث تدور الاشتباكات من حين لآخر مع العدو . . وحيث تظهر « نهى » اللاجئة الفلسطينية المشردة . . التى يزرف عليها السباعى دموعه بغزاره ، ويجيد فى عرض مأساة فلسطين وضياعها من خلال « نهى » هذه . . إن السباعى — كما يؤكد طه حسين : أجاد هذه القصة بصفة خاصة ، عن حب لفلسطين . وأقرر أن يوسف السباعى قد كتبها كأروع ما يمكن أن تكون الكتابة . . » .

و . . أصل إلى شخصية نهى ، التى كانت ترى فى وجود الضابط المصرى كل الثقة والأمن والحماية «كانت تجلس إليه فى أمل ،

وإصرار . . لتحدد به طريق العودة الى الوطن الغائب . . والأرض المسلوبة . . وأنها يوماً ما . . مهما طال الزمن . . ستعود إلى أرضها . . إلى أهلها . . ويسود طريق العودة سلام وأمن ومحبة – ص ٤٣٠ . . لكن السلام لا يأتى ، ودماء إبراهيم ومراد تمتزج ، ويسقط الشهداء المصريون . . وتنقلنا دماء الأبطال إلى « ابتسامة على شفتيه . . » .

فإذا كانت طريق العودة تنتهى بمزيد من الجراح والشهداء ، فإن السباعى يعود لنفس القضية ويكتب عنها بحماس ليدلهم – الفلسطينيين إلى الطريق السليم إلى حقوقهم . وهو البندقية والثورة والالتزام بأرضهم ، وذلك من خلال « عمار » الذى رأى دماء بعض أهله يسيل أمام عينيه وهو صبى صغير ، ورأى بطن أمه يُبْقَر بالسونكى و . . كان أن عرف طريق القتال وصار فدائيًّا ، يدافع عن والده الشيخ عبد السلام . . عن أخيه الصغير خالد . . عن ابنة خالته « مى » . . التى كانت تحبو أول ما حبت – فى بركة من دماء أمها ، دون أن تدرى أن القتلة من اليهود يدمرون دير ياسين – بلدتهم ، على رءوسهم وإن عرفت الآن . . وقد صارت مدرسة للرسم ، تعلم أطفال فلسطين أن يذكروا وطنهم ! . .

إن نهاية « ابتسامة على شفتيه » تثير الشفقة على تفكك العرب وتثير الأسى والحزن الثقيل على الشهداء . . وتزرع العزم والتصميم فى نفوس الشرفاء . . ليقبلوا المزيد من التضحية . . و . . يكفى أن الرواية تنتهى بإذاعة أول بيان « لمنظمة فتح » لتعلن ميلادها . . الثورى ، بفضل

مصر ، والسباعى واحد من أصحاب هذا الفضل عليهم – للحقيقة والتاريخ – ولابد أن نذكرها بعد أن اغتالوه غدراً وخيانة ، هو فى طريقه للدفاع عن حقوقهم فى . . مؤتمر شعوب أسيا وأفريقيا فى قبرص لقد علمتهم بقصته أن البندقية تضع الفلسطينى حيث يجب أن يكون . . من أجل أرضه . وليس . . لاغتياله ! . .

●● جفت الدموع
●● وليل له آخر !

إن السباعى كأى أديب مسئول ، ملتزم بقضايا الحرية والعدل ، مد بصره ، وبصيرته إلى كل طموحات الأمة العربية ، فها هو ذا فى قصتيه الطويلتين : جفت الدموع – وليل له آخر . . يؤرخ للوحدة بين مصر وسوريا ، ثم يشد من أزر العرب – يوم الانفصال ، مبشرا بفجر آت لا ريب فيه ، بعد الليل المؤلم الطويل ! . .

إن قصة « جفت الدموع » . . نموذج آخر من إيمانه بوجود الطموح العربى إلى التوحد . . والإنسان المصرى فى هذه القصة ، ينحصر وجوده فى حريته . . و « هو الذى يفتح بإرادته الحرة ، أمام الحرية أفق الممكنات » – انظر : د . عبد العزيز شرف فى كتابه : الرؤيا الإبداعية فى أدب يوسف السباعى » . . ص ١٢٧ . .

إن الوحدة فى قصة السباعى ، عمل جماعى . . يجب أن يتم لمصلحة

الجميع ، وليس لأغراض زعامية . . وهو لا يخفى قلقه على مصير الوحدة بين أيدى المتنافسين على السلطة ، وعلى إفساد العلاقات بين الناس البسطاء والعاديين الذين من أجلهم نحلم جميعاً بالوحدة الحقيقية . .

لكن السباعى يعود لهذه الوحدة بكل الأحلام والعزم فى ليل له آخر . . . حيث يربط هذه القضية السياسية ، بمصائر الإنسان المصرى العادي . . والإسنان السورى العادى ، من خلال قصة مرض ابنه ، وفشله فى العثور على علاج له فى القاهرة ، ثم سفره بابنه إسماعيل إلى لندن بحثاً عن الشفاء الذى تم والحمد لله ، ولكنه كان فى تلك الأيام قانطا ، مشغول البال ، وكأنه يحس بأن الغدر قادم ليغتال شيئا عزيزاً على نفسه كما سنلمس ذلك فى حواراً لسباعى مع أنيس منصور . . فى لقاء تم آن ذاك ، ونشره أنيس منصور . . ثم ضُم هذا الحديث إلى كتاب : « الفكر والفن فى أدب السباعى » .

●● قال أنيس منصور :

يصلى ويصوم ولا يشرب ولا حتى الشاى ولا القهوة ولا يدخن ، ويكتب كل يوم .عندما يكتب ينعزل تماماً عن العالم ، وهو هادئ جدًّا ، وظاهره جاد . . ولكنه من داخله يحب المرح والضحك والنكت . .

– إن السباعى متفائل دائماً لكن :

أنيس : ما هو التفاؤل يا يوسف ؟ ! . .

يوسف : إنه الإنسان الذى يشعر بقوته . . وقدرته على الانطلاق . . وإمكانية الاستفادة من صدماته بالطاقات الأخرى . . والمتفائل أولا وأخيراً : مؤمن بالنجاة من العناء ! . .

أنيس : وما هى الصدفة ؟ ! . .

يوسف : أن يقع اصطدام بين طاقتين لم يكن هذا الاصطدام فى حسابهما ! . .

أنيس : والمتشائم ؟ !

يوسف : هو الذى لا يفهم معنى طاقته . . ولا يفهم ما قيمة أن يتحرك . . ولا أمل عنده فى نهاية هذه الحركة ! . .

أنيس : والأمل ؟

يوسف : هو أن تحقق لك النجاة من اصطدام بطاقة إنسانية تعطلك عن سيرك ! . . »

* * *

هذه هى حالته النفسية ، وتماسكه ، مع إحساسه بأن ثمة شيء سيقع . . كما نقلها لنا قلم أنيس منصور ، قبيل حدوث الانفصال الذى صوره السباعى فى القصة من خلال الفتاة السورية « سهير » التى التقى بها فى مستشفى لندن – أثناء علاجه لابنه إسماعيل .

وطه حسين : يقول :

« إن السباعى فى « ليل له آخر » يصدقنا القول ، فى روايته للأحداث

التاريخية ، ولا يمزج التاريخ بالخيال » وهذا ما نجده من متابعتنا للفتاة السورية سهير التى نشأت فى أسرة واسعة الثراء ، ولكنها تعرضت لحادث أصاب إحدى ساقيها عن الحركة . . فمرضت وعالجها أطباء سوريون وفشلوا ، فسافرت إلى لندن ، وفشل الطب معها فعادت إلى سوريا يائسة ، مطحونة باليأس . . وتتم الوحدة وتلتقى بالضابط المصرى الشاب « حمدى » الذى أحبها ، وحاول أن ينقل إلى قلبها الأخضر ، ما يشعر به من أمل وثقة وعزم وتفاؤل ، لكى تغالب عاهتها وإحساسها باليأس وهى تتوكأ على عكازتها ، وظل بها حتى شفيت نفسيًّا وصارت أكثر تعلقاً بالحياة والحب والأمل . . وتسافر مرة أخرى إلى لندن للعلاج ، لأنها تريد أن تتزوج حمدى المصرى ، ويتم لها الشفاء هذه المرة ، وكأنما الأمل الذى زرعه الضابط المصرى بداخلها قد أنبت المعجزة الطبية ، وتعود لتحقق حلم حياتها بالزواج من حبيبها المصرى لكن . . الأحداث تضطرب و . . يزداد سخط الساخطين على الوحدة من أغنياء سوريا . . ويرفض والدها الثرى هذا الحب وهذا الزواج ، ويمعن فى رفضه ، لكن حمدى لا ييأس ، يقول لسهير :

– « فى الحب قوة لا تشبهها قوة ! . »

ولكن الإصلاح الاجتماعى الذى بدأ فى ظل الوحدة وأسعد السوريين جميعاً ، وأثار حنق الأغنياء منهم ، وجعلهم يدبرون للانفصال عن مصر ، خفية وبلا عقل . . وكان أبو سهير من هؤلاء الأغنياء

الساخطين ، العاملين على الانفصال وحقق هدفه الأول بإبعاد سهير عن حمدى . . لكن هيهات . إن الفتاه تعلقت بالفتى ، وصارت تعلن فرحتها هى وشباب سوريا بالوحدة . . ولكن . . الليل أقبل . . وتآمر الساخطون وفصلوا سوريا عن مصر . . و . . . على حد طه حسين : « حدث ما شئت عما أصاب سهير من الأسى واللوعة والانشقاق على نفسها وعلى خطيبها حمدى المصرى . . وإن كان هذا كله قد ضاعف من حبها له ومن حبه لها . . » .

* * *

إن السباعى ، فى هذه القصة يقدم ألواناً من روعة الأداء الفنى والفكرى « التى تسحر النفوس ، وتملؤها إعجاباً ، بما وفق إليه من جمال الوصف ودقته . . » .

* * *

هو أيضاً . . بطل !

● **وبعد ؟ !** . .

إن يوسف السباعى ، كما رأينا ، كان مشغول الفكر على الدوام ، بالإنسان وحريته ، وحقه فى الحياة الحرة الكريمة ، وكان يملأ قصصه بصور رائعة الإبداع لبطولة الإنسان المصرى و . . كان يناصره ويدعوه إلى هدم كل ما هو فاسد ، ويشاركه الهجوم على الظلم ، ويضع يده فى يد الإنسان المصرى ، لكى يشاركه فى « إعادة بناء الحياه » . . وكان يقول دائما : « هذا البلد لا يحتاج إلى شيء كحاجته إلى الاستقرار . . استقرار وهدوء توضع فيه المشروعات التى تؤدى إلى رخاء الشعب . . ثم تنفذ فى صمت وسكون وفى عقل وحكمة . . . بلا تهريج ولا ضوضاء ولا شغب . . ولا دعاية ولا حفلات ولا زينات . . بل تحدد الأهداف التى سنصل إليها ، والطريق الذى سيوصلنا . . والزمن الذى يستغرقه الوصول . . ثم نسير فى طريقنا . . قدما . . بلا تلكؤ . . ولا هزل ولا عبث . . »

* * *

هذا جانب واحد . . من الجوانب العديدة فى شخصية السباعى ،

وفى قصصه ، ولقد عرفتم الآن كيف عاش ملتزماً ببطولة الإنسان المصرى ، وحرية الشعوب . . ولعل خير ختام لهذه الدراسة هو قوله فى صفحة ٢٠٥ – من رائعته : طريق العودة :

– « ما أسرع ما ينتهى الإنسان . . فى لحظة يكون . . وفى اللحظة التالية يختفى الفاصل بين أن يكون أو لا يكون . . لحظة واحدة لحظة واحدة . . فقط ! ! . . كان يمكن أن تأخذ نهاية الإنسان وقتاً أطول ! . . هذا الكائن الضاحك الصاخب . . المتحرك . . المفكر . . الذى يفعل أشياء كثيرة . . كان يجب ألا ينتهى بهذه الطريقة الخاطفة ، . كان مفروضاً أن يكف عن كل أفعاله الكثيرة شيئاً فشيئاً . . لكنه . . ومْض البرق . . الموت الخاطف » ! !

إنه كلامه . . بالحرف ! ! . .

لقد عاش بطلا . . واستشهد بطلا . . كان مثل حورس . . الأمل المنشود فى الخلاص وكانت إيزيس . . مصر . . فى أشد الحاجة إليه . . والى أمثاله من الأمناء على مصريتها . . لكن . .

هل يكفينا أنه ترك فى كل قصصه ، صوراً خالدة لبطولات الإنسان المصرى؟ ! . . وأنه استلهم « روح مصر » فى كل كلمة كتبها ؟ ! . .

هل يكفينا هذا . . أعتقد أنه سبب واحد من مليون سبب تجعلنا جميعاً فخورين به . . جيلا بعد جيل .



السباعى – وزيراً للثقافة – والمؤلف حسن محسّب . . فى حديث عن التجربة الروائية لكل منهما . . فى برنامج «لقاء الأجيال» تقديم جيلان حمزة فى التليفزيون (١٥/٦/١٩٧٥)



السباعى يرأس وفد الأدباء المصريين فى موسكو (أغسطس – سبتمبر ١٩٧٣)

فهرس

رقم الإيداع	١٩٧٨/٢٦٠٠
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٢٢٩ – ٥

٣٥/٧٨/ق

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)